روايات عبير

مارجري هيلتون

جزيرة آدم

٢٤

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 24

جزيرة آدم

وخلق الله آدم وحواء ، خلقهما الواحد تلو الآخر ، الواحد للآخر. هكذا كان الامر منذ بداية الخليقة ، وفي هذه الرواية الملفوحة برياح المحيط الهادىء ، نلتقيهما من جديد ... آدم و ... روبين ، هو موسيقي أصيبت يداه في حادث ففضل الانعزال ومراقبة الطيور في تلك الجزيرة النائية ، وهي أرسلها القدر ذات ليلة الى الشاطىء المهجور عن قاب قوسين أو أدنى من الموت .

لكن كيف ستكون ردة فعلها حين تعلم أن الزواج هو الحل الوحيد لبقائها في الجزيرة ؟ وهل تستطيع أن تتزوج رجلا مشهورا سيضع فنه فوق كل شيء ؟

في «جزيرة آدم» صراع وشبح امرأة أخرى يطل من الماضي...

١ ـ الغريقة

كانت جزيرة «أزينا» ترقد ناعسة تحت السماء العميقـة، وأشعة الشمس الأخيرة تتخلل السحب القاتمة وتنشر اللون الناري في الأفق الممتد فوق المحيط ومن تلك المسافة البعيدة كانت المداخل الشمالية للمحيط الهادي تبدو ساكنـة كالحرير، الا أن هدير الأمواج، تتكسر فوق الصخور عند مدخل الخليج المائي أثار انطباعاً مفعماً بالخطر، ارتسم على وجه الرجل الذي وقف ساكناً في شرفة البيت المطل على الخليج، وهو يغالب مشاعر الغضب المعتملة في نفسه.

ولم يكن هنالك اسم معروف لهذا البيت المكون من أربعة جدران خشبية وسقف. وتحرك الرجل آخر الأمر، وانعكس الضوء الصادر من النافذة الخلفية على المخطوطة البيضاء التي كان يمسكها في يده. وانحنى فوقها يعيد قراءة سطورها برغم انه حفظها عن ظهر قلب، وهي سطور تتسم بالاتساق والجمال كاليد التي خطتها وفجأة طوى المخطوطة وألقى بها فوق النباتات المتسلقة المزينة بالزهور القرمزية، الزاحفة على سفح التل كبساط يضيق به المكان.

وأشعل سيكارة بالولاعة التي أهدتها هي اليه، وأخـذ الشرر المتطاير من عينيه يعكس مدى عمق الاحساس بالاحباط الذي أصابه اذ حمل قارب البريد الأخير رسالة «لستيفن» الذي يعمل في محطة الأرصاد الجوية في الجزيرة مما ذكره بعلاقته مع «ستيلا»، فزم شفتيه بمرارة وهو لا يكاد يصدق.

اختفى قرص الشمس وبدأ الظلام يلف المحيط وصمتت أصوات الطيور مع مغيب الشمس، وعادت الجزيرة الى وحدتها وعزلتها. وبدأ يألف شيئاً فشيئاً ليالي

الوحدة المقيتة ويتقبلها. وفجأة لمح أضواء أحد اليخوت يخرج من المرفأ القائم وسط تجويف صخري.

انها راحلة إذاً. أطفأ سيكارته وقد تملكه شعور بالارتياح الغاضب وهو يتذكر المشهد غير السار الذي حدث صباح اليوم. كانوا ستة: ثلاثة من الشباب وثلاثة يتظاهرون بأنهم شباب، وكانوا على درجة من الغطرسة والعجرفة المستهترة مما جعله يتذكر العالم الذي جاء منه. نعم انه يتذكر ذلك تماماً، ولكن أتراه يجرؤ على أن يتذكر أنه هو نفسه كان يوماً ما ضمن مجموعة من الغزاة القادمين من اليخت الأبيض والباحثين عن المتعة والاثارة؟ الفارق انه كان يحمل هدفاً لحياته. هدف ذو قيمة تغطي على المظهر المتباهي الذي كان يظهر به مع أقرانه وهم يرتدون القمصان الحريرية التي يبلغ ثمن الواحد منها ثلاثين جنيهاً استرلينياً، ولكن في أي حال فان هذا كله لم يكن ليصل الى حد الكبرياء والغرور اللذين لمسهما اليوم من أولئك القادمين الجدد.

ولوى فمه في سخرية، اذ كان من المشكوك فيه أن ذلك الرجل الفارع القامة المفرط في التأنق، والذي يحمل آلة تصوير يبلغ ثمنها مائتي جنيه استرليني، يمكنه أن يميز الحامل الذي ترتكز الآلة عليه ان هو شاهده فكيف يعرف شيئاً عن الزوجين النادرين من الطيور المهاجرة اللذين كان يصورهما.

كان هذا المغرور ذو الأنف الأرستقراطي المتعجرف بادي التحدي صراحة وهو يبحث عن ذلك الذي يعتبر نفسه حامي حمى الديار لهذين الزوجين من الطيور، بل ظن أن ستيفنز وهو يشبه أولئك البيض الذين يتسكعون في جزر المحيط الهادي، هو الذي أقام نفسه قانوناً في جزيرة ألزينا.

ولوى ستيفنز فمه بسخرية مرة أخرى، وفي تلك اللحظة تماماً لمح هؤلاء الأشخاص جراب مسدسه وهو يرتكز على فخذيه من الخلف. انه الرادع الصامت فهل أصبح ستيفنز نفسه فجأة على تلك الدرجة من الخطورة، جعلتهم يتراجعون ويعودون أدراجهم الى قاربهم، يحتسون المشروبات المثلجة الأمر الذي

أثلج صدر ستيفنز الذي كان يرقبهم باهتمام من مسافة يمكنه أن يقطعها بسهولة اذا أفلت زمام الأمور من يده.

خيّم الظلام تماماً الآن، وبينما هو يتأهب لدخول البيت، لمح شيئاً أبيض يتحرك عند الخليج حفره المطر فأخذ يمعن النظر محاولاً أن يخترق حجب الظلام، وظن أن ما رآه، من صنع خياله، وأشعل سيكارة ثانية وهو في حالة من التوتر.

ولمح ذلك الطيف الشاحب من جديد عند الجانب القريب من الأرض التي تغطيها الشجيرات الصغيرة يتحرك، ويقترب ببطء الى أعلى في اتجاه البيت. فدخل بسرعة وأحضر كشافاً وقد تيقن أن شخصاً ما أو شيئاً ما موجود أسفل البيت.

وشق طريقه بخطى واثقة، فقد اعتاد على المواقف الصعبة، وتوقف عند حافة الخليج وأخذ الكشاف الذي يحمله يحدث دوائر سريعة وسط الأشجار والنباتات. لكنه لم يعثر على شيء أو يلمح أية حركة، وكاد الصمت يفقده صوابه وصاح فجأة:

«من هناك؟»

وكان صوت المد البحري المندفع نحو الخليج هو الرد الوحيد الذي تلقاه، وراح يتفقد المكان حوله، اذ لا يمكنه أن يكون مخطئاً فان شيئاً ما تسلل الى هذا المكان، وفجأة سمع صيحة كالأنين فالتفت نحو الصوت الذي كان صادراً على ما يبدو من الجانب الآخر وعبر المياه الضحلة وتعثر أثناء ذلك فسقط وابتلت ملابسه، وما أن وصل حتى أطلق صيحة أخرى ينادي بها على صاحب الصوت، فرد عليه صوت يشبه صوت غلام. فاتجه نحوه وسأله عن غرضه هنا، وطلب منه أن يظهر فقال له صاحب الصوت، بعدما حاول النهوض انه لا يستطيع لأن قدمه مصابة. فأمسك به وأحس بقشعريرة وهو يلمس جسمه، فسلط نحوه الكشاف ليتبين ملامحه، ففوجىء بأن هذا الوافد انما هو فتاة ترتدي فردة حذاء واحدة؛ فتاة تبدو كالطفل الصغير، أو هذا هو ما تراءى له حينئذ. وراح يبحث عن شيء يحمل

ليه بعض الماء ولكنه لم يجد، كما لم يكن معه غطاء للرأس يستخدمه في هذا الغرض، فسارع بلأكتفيه بالماء وبلل رأسها فاستردت وعيها، وتحركت وأبعدت خصلات شعرها عن وجهها الذي بدا عليه القلق وقالت:

«فقدت حذائي على الشاطيء، أما حاجياتي الأخرى فقد...»

«لا تشغلي بالك بالتفسيرات، هل يمكنك السير؟»

حاولت أن تسير بمساعدة من يده ولكنها أخفقت، وبدون أن تتفوه بكلمة واحدة حملها فوق ذراعيه وعبر بها الخليج في حذر نحو الشاطيء الآخر، ثم اتجه الى الممر المؤدي الى منزله، وعندئذ سألته:

«الى أين نحن ذاهبان؟ هل هذا...»

«لا أعتقد أنك في وضع يسمح لك بتوجيه الأسئلة.»

«كلا، ولكن...»

وأنزلها حتى يفتح الباب باحدى يديه، وأدخلها الغرفة الرئيسية وأجلسها على المقعد الوحيد، وأشعل الموقد بسرعة ووضع فوقه اناء ماء ثم اتجه نحو الفتاة الصغيرة المسترخية على المقعد وسألها:

«ما الذي بلل ملابسك؟»

«ماء البحر»

ونظرت اليه في قلق وقد بدا الخوف في عينيها وأضافت:

«سبحت...»

فقاطعها قائلاً:

«وهل تسبحين عادة وأنت في كامل ملابسك؟ لا تخافي اخلعي ملابسك، وسوف أحضر لك ملاءة تسترين نفسك بها.»

فتجمد خوفها ودار بصرها في أرجاء الغرفة ثم نظرت اليه قائلة:

«وكيف أخلع ملابسي؟ كلا، لا أهمية لذلك سأصبح على ما يرام خلال دقيقة واحدة»

وأخذ يتأملها في برود وبدون أي رغبة، ولمح بقعاً حمراء على كم قميصها الأبيض، ونظر الى قدمها الحافية والرسغ المصاب، وذهب فجأة الى الغرفة المجاورة وأحضر منها ملاءة، ثم أحضر منشفة كانت معلقة بالقرب من الموقد وقال لها:

«هيا، اخلعي ملابسك، ولا تقلقي فلن أنظر اليك، سأعد مشروباً ساخناً، وأدار ظهره وانشغل باعداد المشروب وتقطيع السمكة التي اصطادها في الصباح، وبعدما أضاف بعضاً من مسحوق الحساء الى السمكة في الوعاء، أحضر وعاء نظيفاً ووضع فيه بعض الماء، وأضاف اليه كمية من مادة مطهرة واتجه الى ضيفته التي أخرجت ذراعها من تحت الملاءة وسمحت له بأن ينظف الجلطة التي اصيبت بها وأن يضمدها بضمادة لاصقة وقالت له بسرعة:

«سوف أتولى أنا بنفسي أمر قدمي.»

فترك وعاء الماء الى جوارها، وقام في هدوء بعدما أخذ كومة ملابسها المبتلة، وعلقها فوق الموقد لتجف، وسارع لانقاذ السمكة قبل أن تحترق، وأعد قدحاً من الشاي قدمه للفتاة بعدما أضاف اليه قليلاً من الشراب وقال لها:

«هيا اشربيه كله، فأنت تبدين كالشبح.»

وأخذ يرقبها، وعندما رآها تتردد في اكمال شرب الشاي بعدما رشفت منه بضع رشفات، قال لها:

«اشربي، لكن لا أريدك أن تحضري الى هنا مرة أخرى.»

فردت عليه وما زال لونها شاحباً، وقالت:

«لا تقلق، لن أعود لزيارتك مرة أخرى، وحالما تجف ملابسي سأتركك في سلام.»

فرد عليها في سخرية وهو يسكب الحساء في اناء وقال:

«والى أين أنت ذاهبة؟ ومن أين أتيت؟»

«ذاهبة الى القرية، كنت في طريقي اليها عندما دفعت بي أمواج المد وأجبرتني على النزول هنا...وأصيبت قدمي... ورأيت ضوء الكشاف الذي كنت تحمله

وعندئذ...»

فصاح بها في دهشة:

«كنت ذاهبة الى الطرف الآخر من الجزيرة؟ لا أفهم؟ هل كنت تسبحين؟»

فهزت رأسها قائلة:

«استغرقت حوالي ساعتين في السباحة، كان التيار عنيفاً وكنت...»

وأخذ الشك يساوره فيما تقول وصمم أن يعرف الحقيقة وقال لها:

«هل أمضيت ساعتين في الماء؟ انني لا أصدق هذا، أخبريني الحقيقة، فأنت تعلمين تماماً أنه لا توجد هنا أية قرى.»

فهزت رأسها في حدة وبدا عليها الخوف من جديد وقالت:

«ألا توجد أية قرى هنا؟ ولكن هناك بعض القرى فعلاً، رأيتها، هناك أبنية وساحة كبيرة بجوارها، ولا يمكن أن يكون هذا سوى فندق، وهذا ما جعلني...»

فقاطعها في برود قائلاً:

«انها محطة للرصد الجوي، وهي قاعدة أمريكية، ولا يوجد هنا أي فندق أو قرية، وأنت تعرفين ذلك كما أعرفه، والآن عليك أن تنطقي بالحقيقة.»

فنظرت اليه وقد شعرت بصدمة، وقالت وأصابعها ترتعد بصورة أوشكت معها أن تدلق الشاي:

«لا يوجد أي فندق؟ ولكن لا بد أن يكون هناك فندق... لا بد أن يكون هناك فندق.»

وأصيبت فجأة بانهيار، وأخذت شفتاها ترتعشان وهي تغالب دموعها، وأصابتها حالة من اليأس جعلتها تتلمس أي شيء يطمئنها بأنها لم تقع فريسة لكابوس، وأخذت تتمتم قائلة:

«يا إلهي، ما الذي فعلته؟»

وأخذ يحدق فيها للحظات طوال وهو منزعج، ويشعر بأنه مقدم على مأساة. انها تعاني من ورطة كما أنها تعاني من التعب والانهاك ولو صح أنها ظلت في

الماء لمدة ساعتين ـ وهو لا يستطيع الآن أن يجد تفسيراً آخر لظهورها المفاجىء أمام بيته ـ فانه لأمر غريب أنها ما زالت على قيد الحياة. ولا بد أن تكون جاءت من ذلك اليخت، ولكن كيف؟ هل سقطت عنه؟ كلا فهذا تفكير مضحك، ولكن لو كان ذلك قد حدث لكانت غرقت وسط الأنواء، وهذا اليخت ليس لعبة، فهو سفينة حديثة عابرة للمحيطات، ومزودة بأحدث الأجهزة ولها قاربها الخاص الذي يسير بمحرك، ومن يملك هذا اليخت لا بد أن يكون من طبقة السلاطين أو أحد أثرياء النفط.

وعندما نطق، رغماً عنه، ببعض الكلمات التي أظهرت تعاطفه معها، تحركت ونظرت اليه، وترقفت الكلمات في حلقه وماتت، وبدا كالملهوف وهو ينظر اليها بشعرها غير المنتظم الذي بدأ يجف، وتلاشت صورتها من أمام عينيه لتظهر مكانها صورة ستيلا التي تخيلها جالسة مكانها، وذقنها يلمس احدى كتفيه وهي ترمقه بعينيها الأرجوانيتين، ثم تخيلها بعد ذلك وهي تقبل برأسها... كلا... انها لا تريده، وهي لم تنتظره، ولن تفعل ذلك أبداً اذا هو عاد يوماً ما الى الوطن...

وسيطرت عليه حالة من الثورة العنيفة عندما أخذت تلك الصور الذهنية تعذبه وتبعث فيه ميلاً شديداً لكراهية النساء اللواتي يتصفن بخيانة الوعد لمجرد الرغبة في التدمير، وامتلأت نفسه بغضب جامح ضد الفتاة التي اقتحمت عليه مأواه، وكيف دفعت بها الأقدار في طريقه؟ انها تذكره بالمرأة التي ظنها تنتظره حتى يأخذ مكانه في الحياة من جديد، وتضمد جراحه بحبها...

وانهض وتقدم خطوة واحدة وأخذ فنجان الشاي من يد الفتاة المرتعشة وقال لها:

«استحلفك بالله أن تفضي اليّ بما فعلته؟ ومن أنت؟ ولماذا جئت الى هذا المكان؟»

٢ ـ ثلاثة اشهر فقط!

أخذت آهة مرتعشة تسري في أوصال الفتاة بينما الدفء يعود الى شفتيها المرتعدتين المتعبتين بعدما رشفت قدح الشاي، ولكن هذا لم يشعرها بالراحة الكاملة لأنها، وان كانت تعتقد أن كابوس البحر انقضى، بدأت الآن تواجه كابوساً آخر.

دفعها السكون المخيّم داخل المنزل المعتم الى التزام المزيد من الحذر، وتملكتها انطباعات مضطربة وهي تتفقد الغرفة حيث تجلس، فهي مبنية من جذوع الشجر، موائدها عارية من أية أغطية، وأرضها تكسوها السجاجيد البالية، وليس فيها سوى مصباح مكشوف، لا يكاد يصل ضوؤه الى أركان الغرفة الغارقة في الظلال.

انها غرفة فسيحة، لكنها تختلف عن أي غرفة أخرى في أي مسكن عرفته في حياتها، فالجدران والأرضية من الخشب الطبيعي، والموقد لونه رمادي وغير جميل، والنافذتان عاريتان من أي ستائر، وتحت احداها مكتب كبير تكونت فوقه مجموعة من المجلدات الضخمة، وبعض الدوريات العلمية وزوج من نظارات الميدان وأكوام من الأشياء الأخرى التي تستخدم في العمل والدراسة.

لكن الغرفة وما فيها تضاءلت أمام القوة الطاغية للرجل الذي اجتذب انتباهها، طوله ستة أقدام على الأقل، وجسمه متناسق، وقسمات وجهه حادة، وفمه ينم عن حسّ بدني كامن قد ينطلق من عقاله في لحظات الانفعال العاطفي، ولكنه يبدو الآن مشدوداً ومتوتراً وليست فيه أي ملامح ودية، ذقنه

حادة وله شعر كثيف فاحم، وجبهة عريضة وبشرة برونزية تشير الى أنه أمضى فترة طويلة من الزمن في العراء تحت أشعة الشمس، وترك أزرار قميصه مفتوحة حتى الوسط في إهمال واضح.

وفجأة أحست بعينيه تأسران عينيها، ولكنهما كانتا تشتعلان بإحساس صارم بالامتعاض والتبرم، مما جعلها تتجمد خوفاً. ووضع قدح الشاي على المائدة بعنف بجوار الطعام الذي لم يكن يبدو أنه سوف يؤكل...

وهمست له قائلة:

«اسمي روبينا واين ولكن أصدقائي يطلقون علي اسم روبين وانا...»

فقاطعها في برود وقال لها بصوت غير ودي وبتعبير كله اشمئزاز:

«وأين هم أصدقاؤك الآن؟ وكم هو العدد الذي أتوقع قدومه الى هنا اثر انتهائهم من ممارسة رياضة السباحة بعد منتصف الليل؟»

فردت عليه في برود:

«ليس لي أصدقاء.»

فقال لها وهو لا يكاد يصدق:

«أحقاً ليس لك أصدقاء؟»

وبددت نظرة الشكك في عينيه ما تبقى لها من قدرة على المجادلة وأطرقت برأسها وهي تقول:

«ليس لي الآن أصدقاء، ولا أعتقد أنه سبق أن كان لي أصدقاء.»

فحدق فيها لحظة، واقترب حاجباه من بعضهما البعض ثم نظر الى المائدة وسألها:

«ألن تتناولي طعامك؟»

«لا أعتقد أنني أستطيع تناول شيء من الطعام الآن.»

فهز كتفيه قائلاً:

«هل يضايقك أن أتناول أنا الطعام؟»

«طبعاً لا، آسفة لأنني عطلتك عن تناول عشائك.»

فأخذ مقعداً وجلس الى المائدة المصنوعة من البلاستيك وأمسك بسكين ثم وضعها على المائدة مرة أخرى وراح يرمقها. فنظرت اليه وقالت له:

«تناول طعامك، فما كان يجب أن أكون هنا، ولولا إصابة رسغي كنت الآن في محطة الرصد الجوي أو في أي مكان آخر.»

فرد عليها بجفاف قائلاً:

«كانوا سيرحبون بك في هذه المحطة بكل تأكيد.»

وقالت لنفسها في مرارة: «كانوا سيستقبلونها بأفضل من استقباله لها». وأحسّت باحمرار وجهها وهو يرمقها بنظرة حادة، وقال لها بجفاف وكأنه قرأ أفكارها:

«إن كان استقبالهم لك سيلقى استحسانك أكثر من استقبالي، فهذه مسألة أخرى.»

ولم تكن هناك صعوبة في فهم ما يعنيه، فلزمت الصمت، وأخذت نظراتها تدور في أرجاء المكان حيث يعيش هذا الرجل الغريب.وأحسّت لأول مرة بحب الاستطلاع نحو منقذها. فما الذي يفعله في تلك الجزيرة المنعزلة التي تبدو من المعالم القليلة التي رأتها وكأنها جزيرة مفقودة في أرجاء الكون العريض؟ عجرفته وثقته بنفسه تتحدثان عن شيء، كان يجب عليها أن تدركه في الحال الا أنها لم تستطع اكتشافه.

ونظرت مرة أخرى الى المنظار الموضوع على المكتب والى رفوف الكتب، ولاحظت على المائدة الصغيرة منظار لرؤية الشرائح المصورة وشيء آخر بدا شاذاً وسط تلك الأشياء، وقال لها وهو يتابع اتجاه نظرها:

«ألا يحسن بك أن تبدأي في تناول الطعام وأن تروي لي القصة من بدايتها؟»

فحولت بصرها عن دفتر المقطوعات الموسيقية والتمثال النصفي العاجي لشخصية اعتقدت أنها كان يجب أن تعرفها، ووضعت طبق الطعام فوق ركبتيها، وبعد أن تناولت شيئاً منه قالت له في بطء:

«ليس لدي الكثير اقوله، وكل ما هناك أنني أضطررت الى ترك ذلك اليخت.»

«لماذا؟»

ردت عليه في ضجر:

«أشك في أنك سوف تفهم ما أقول.»

قدم لها كعكة مغطاة بالزبدة، وسكب مزيداً من الشاي في قدحها وقال لها:

«لأنني لست امرأة؟ استمري في تناول طعامك؛ فالخبز لذيذ؛ لديهم في محطة الرصد الجوي طاه يزودني بالكعك والبسكويت، وأقوم أنا باعداد باقي الطعام... أعتقد أن هناك رجلاً وراء ما حدث.

«وما الذي يجعلك تفكر هكذا؟»

أخذت قضمة من الكعكة وفوجئت بأنها فعلاً لذيذة. وأدركت أنه يجب عليها الآن أن تفكر فيما يجب أن تفعله بعد فرارها من اليخت، ورد عليها قائلاً:

«لأنه عندما تقوم المرأة بتصرف طائش كالفرار من قارب والسباحة ليلاً الى الشاطىء، يمكن المراهنة أن هناك رجلاً وراء ذلك.»

«نعم كان هناك رجل، وأرجو ألا أراه مرة أخرى في حياتي.»

«أهو مالك اليخت؟»

«نعم، انه المالك، وهو يمتلك أسطولاً من السفن التجارية، وجيشاً من الأرقاء. انه في الستين من عمره تقريباً، وهو أنيق يبدو كملاك ولكن له قلب شيطان، وقد اعتقد أنه يمتلكني.»

«وما الذي جعلك تغيرين رأيك؟»

فرمقته بنظرة حادة وقالت:

«لم أغير رأيي. ماذا تقصد؟»

ابتسم ابتسامة ساخرة وقال لها:

«لا بد أنك صعدت الى اليخت بمحض ارادتك. فرجل غني كالذي أشرت اليه يمكنه أن يشتري عدداً غير محدود من النساء لارضاء نزواته.»

«كنت أعمل لديه، ولم يكن أمامي مجال كبير للخيار»

ولاحظت تغير الامتعاض الذي بدا للحظة على وجهه فأضافت بسرعة:

«أقام حفلاً على ظهر اليخت، حضره حوالي ثلاثين شخصاً، وكان أخوه وزوجة أخيه بين المدعوين ومعهما ابنتهما، التي كان عمرها اذ ذاك احدى عشرة سنة وكنت رفيقتها وخادمتها في آن واحد»

«انها لتبدو طريقة رومنطيقية للسفر حول العالم والحصول على أجر، أكملي قصتك»

« سيرينا ليست طفلة سيئة، أفسدها التدليل طبعاً، وكانت مهمتي الترفيه عنها وابعادها عن الحياة الفاسدة.»

«أعتقد أن مهمتك كانت منعها من مشاهدة أشياء يجب ألا تشاهدها»

قلوت روبين فمها في مرارة وهي تتذكر ما حدث، وأضافت قائلة:

«لم أتبين ذلك الا في الليلة التالية لابحار اليخت، عندما أقيم حفل تنكري انتهى بلعبة تعرّى فيها المدعوون من ملابسهم، ولا أدري ما الذي جعلهم يقحمونني في تلك اللعبة، وكان الشيء الذي دهشت له سيرينا وأصابها بصدمة أنني لم أكن أعرف مسبقاً بما سيجري فوق هذا اليخت، وكان فزعي مما يجري مثار متعة لها ولكنني لم أصدقها عندما حذرتني يوماً ما، رغم أنها طفلة، أن أتجنب عمها، الا أنني سرعان، ما تبينت السبب، وقد كان تجنبه أمراً مستحيلاً. وبدأت أنام في غرفة سيرينا الى أن وصلنا الى باناما ومرضت وأظلمت الدنيا في وجهي ولم أعد اكترث بالحياة أو الموت. وعندما بدأت أسترد عافيتي لم يكن هذا الضرب من الحياة يسعدني، لأن معناه أن المعاناة ستبدأ من جديد، وأخذت أحاول أن أتجنب كارلنغ الذي دأب على ملاحقتي فهو تارة يبتسم لي وتارة يراقبني ومرة ثالثة ينتظرني، وهو في هذا وذاك لا ينثني ولا يتراجع ومنذ ليلتين قرر أنه انتظر بما فيه الكفاية، وأدركت عندئذ أن من الضروري أن أغادر السفينة مهما كانت العواقب. كانت معه نسخ من المفاتيح لجميع غرف اليخت.»

وتوقفت عن الكلام وهي تشعر بقلبها يسرع في دقاته بينما أخذت تحكي قصة الكابوس الذي فاجأها تلك الليلة، وأحست بالخجل الشديد لأنها تورطت في الادلاء بتلك الاعترافات، ونظرت الى أعلى في حين قال لها الرجل الجالس الى المائدة في هدوء:

«وهل استخدم المفتاح؟»

«دفعته داخل الحمام، ولا أظن أنه كان يعتقد أنني سأقاومه، وفررت منه لأختبيء في غرفة سيرينا التي لم أغادرها طوال اليوم التالي. وكنت أعلم أننا متجهون الى هذه الجزيرة بسبب ما فيها من طيور، انها مشهورة، أليس كذلك؟ وقررت أن أتسلل من اليخت وأنزل الى الشاطيء، وأختبيء الى أن يرحل اليخت مرة أخرى عن الجزيرة. ولكن كارلنغ على ما أعتقد، توقع ذلك فلم تتح لي أي فرصة لتنفيذ ما عقدت العزم عليه، فانتظرت الى المساء، وقبل العشاء أبلغت الجميع بأنني أعاني من صداع حاد وأنني سأذهب لأتناول أقراصاً منومة، وعندما سمعتهم يدخلون قاعة الطعام، أسرعت بأخذ جواز سفري وقليلاً من النقود وبعض الملابس وحزمتها داخل قماش مشمع واق من الماء، وأثناء ذلك حضر أحد الحراس في عملية تفقدية، وتمكنت من اخفاء تلك الأشياء بسرعة قبل أن يراها، وتظاهرت بأنني أغير ملابسي استعداداً للنوم، ثم قفزت من فوق اليخت وبدأت أسبح وكلي أمل ألا يلمحني أحد، وعندما وصلت الى الشاطيء كان الظلام مخيماً، ومكثت هناك الى أن شاهدت اليخت يبحر مع موجات المد كما كان مقرراً، وما حدث بعد ذلك تعرفه.

وظل صامتاً لفترة طويلة جعلتها تتساءل اذا كان قد أنصت اليها وهي تروي قصتها، ثم قال لها في برود:

«اخترت بلا شك بقعة تفرين اليها، فماذا أنت فاعلة الآن؟»

«لم أفكر في هذا بعد، وكل ما كان يشغلني هو الفرار من ذلك اليخت اللعين، ثم مواصلة طريقي الى فانكوفر أو سان فرانسيسكو أو حتى هونولولو، وكنت

سأتوجه بأي قارب يصل أولاً. ألسنا بالقرب من الطرق الملاحية الكبرى؟»

أبلغها أنها تبعد كثيراً عن مجموعة جزر هاواي. قالت له ان لديها من المال ما يكفي لسفرها الى الولايات المتحدة وهناك يمكنها أن تعمل لتغطية نفقات عودتها الى الوطن، فهي تعرف فتاة تدعى سارة استطاعت أن تعمل وتوفر لنفسها نفقات طوافها حول العالم. فوقف وأخرج علبة سكائره، ولاحظ أنها تنظر الى العلبة بفضول فسألها ان كانت تدخن فقالت له ان سكائرها ابتلت وطلبت منه في رجاء أن يعطيها بعض السكائر لتدخن. ثم قال لها أنه سيعد لها سريراً لتمضي الليلة فيه. فاعتذرت له عن البقاء هناك وقالت له ان ملابسها جفت الآن، وانها تركت حاجياتها على الشاطىء. فرد عليها بأنها تستطيع أن تبيت في غرفته ما لم تكن تفضل المبيت على الشاطىء الى جوار حاجياتها، وقال لها انه لا داعي لأن تقلق فلا يوجد سوى مفتاح واحد لهذا الكوخ، وانه يرحب بها فيه، وسوف يبيت هو نفسه على سرير للرحلات ينصب داخل غرفة تحميض الأفلام.

وتركها وعاد اليها بعد لحظات ليسألها عن حالة قدمها فقالت له انها لن تعرف قبل أن تختبرها، ونهضت وخطت بحذر وهي تخشى من سقوط اللفافة التي تسترها أكثر من خوفها من أن تؤلمها قدمها. فشجعها على مواصلة السير وأحاطها بذراعه ليساعدها بدون أن تستشعر منه أية عاطفة، وقادها الى الغرفة وقال لها انه يأسف لعدم وجود زر للكهرباء فوق السرير، وطلب منها ألا تسقط المصباح الذي أعده فقالت له انها ستحرص على ألا تشعل له حريقاً في البيت.

وأخذت تنظر في حب استطلاع الى الغرفة التي تشبه صومعة راهب، وكل ما فيها يوحي بالتقشف: السرير والصندوق الذي وضع فوقه مصباح الزيت، والكرسي الوحيد عدا أن الستائر أو السجاجيد معدومة وقال لها:

«لديك هنا بطانية صوفية إضافية ان احتجت اليها. الا أن الليل هنا ليس بارداً، وانما أنت تشعرين الآن بالبرد بسبب فترة السباحة الطويلة والارهاق وسوف أتركك الآن اذا لم تكوني في حاجة الى شيء آخر»

وتردد قليلاً ثم أشار الى السرير قائلاً:

«وضعت لك بعض الملابس لترتديها، وهي قد تكون واسعة قليلاً. ولكن ليس من حق الفارين أن يختاروا.»

فنظرت الى البيجاما الموضوعة فوق الوسادة وقالت له:

«أشعر بأنني لاجئة ولست هاربة، أبديت عطفاً شديداً نحوي، ولا أعرف كيف أشكرك.»

«لا تحاولي، فأنا لست عطوفاً، ولم يكن أمامي من خيار آخر.»

فقالت له وقد استبد بها شعور شديد بالملل:

«آسفة لما سببته لك من ازعاج يا سيد...»

ونظرت اليه في تساؤل وهي تدرك لأول مرة أنها لا تعرف أسمه فقال لها:

«آدم غرانت»

ثم اتجه الى باب الغرفة وأضاف:

«تصبحين على خير يا روبينا واين.»

«بل روبين، تصبح على خير وأشكرك.»

وأغلق الباب بهدوء، وراحت تسائل نفسها عما يكون عليه الوقت الآن لقد توقفت ساعتها ولا توجد ساعة حائط معلقة في البيت، ولكن ما أهمية ذلك؟»

ووقفت أمام النافذة تراقب النجوم والغابات الممتدة تحت السماء التي اختفى منها القمر. واحضرت مرآة من صندوق الملابس لتنظر الى ملامحها المتوترة ووجهها الخالي من الأصباغ وشعرها غير المتسق وأحست بأن شعرها لن يعود الى سابق عهده،اذ ليس لديها مشط لكي تصففه. كما أن الملابس التي لديها لن تكون في مظهر ملائم بعد أن تجف.. وضحكت وهي تتذكر أن ليس لديها سوى فردة حذاء واحدة، وستكون محظوظة ان هي عثرت في الصباح على حاجياتها التي تركتها على الشاطىء، والتي تضم جواز سفرها وبعض النقود والملابس كانت تعتزم ارتداءها عندما تصل الى الشاطىء. وتساءلت اذا كانت ستجد حاجياتها كما

هي بدون أن يكون الشريط اللاصق الذي لفت به القماش المشمع قد انفك، ما الذي دفعها الى تلك الحماقة؟ لا بد أنها أصيبت بجنون!

وأحست بحاجة الى النوم، اذ سرعان ما يأتي الصباح ولا بد وأن تجد معه وسيلة للخروج من ورطتها. وأمسكت بالبيجاما التي قدمها لها، فوجدتها جديدة تماماً ومصنوعة من قماش ناعم من الحرير الخالص، وصممت ببراعة مما يشير الى أنها صنعت على يد أحد مصممي الأزياء المشهورين. وبسطت البيجاما فوجدت بداخلها بطاقة محل الغسل والكي، وقد ثبت على البيجاما شريط يشير الى أن صانعها خياط من شارع بوند، وعندئذ أخذت تجول ببصرها في أرجاء غرفة صاحب تلك البيجاما.

وتخلصت فجأة من الأحاسيس المتضاربة والمحيرة التي أحست بها نحو آدم غرانت فيا جنوى أن يعيش هنا كالناسك تقريباً، في بيت بدائي فوق جزيرة مفقودة ويمتلك بيجاما فاخرة ذات تصميم عالمي وتصلح لأن تلبس في المساء في فندق هيلتون! لكنها بعد أن أطفأت مصباح الزيت واستلقت على السرير شعرت أنه مريح. وسيطر آدم غرانت بملامحه البرونزية الحادة على تفكيرها ولم تستطع التخلص من الاحساس بأنها رأته في مكان ما من قبل، رغم أنها تدرك أنها لا يمكن أن تكون قد قابلته، ونسيت أين ومتى!

وعندما غلبها النعاس رأت في منامها أنها ما زالت فوق اليخت، وأن كل من فيه غادره، وأثناء بحثها عن سيرينا داهمت اليخت عاصفة وبدأ يغرق، ولا أحد يستجيب لصراخها، وفجأة هدأت العاصفة وحملها آدم غرانت الى بر الأمان واستسلمت لذراعيه شاكرة، وبعد ذلك ظهر أمامها وجه كارانج الشيطاني وهو يحاول انتزاعها، واستيقظت من نومها وهي تصرخ وتحاول انقاذ نفسها من بين يديه.

ونظرت الى شجيرة المشمش القريبة من النافذة، وأخذت تحملق في جدران الغرفة الخشبية وهي تتطلع الى ما يطمئنها ويهدئ من روعها، وأدركت أنها

كانت تعاني من كابوس مزعج. ودق غرانت الباب مستأذناً في الدخول ليقدم اليها الشاي، وفوجئت بأنه أحضر لها أيضاً حاجياتها عن الشاطئ، وأحست بحرج نحو هذا الرجل الذي قال لها انه عثر أيضاً على فردة حذائها الأخرى. واستأذنها في الذهاب لضخ الماء في الخزان وتغذية المولد الكهربائي بالبترول وقال لها أنه لن يغيب كثيراً وسألته:

«قبل أن تذهب، أود أن أعرف ما اذا كان هناك حمام؟»

«انني أسف لأنه كان يجب أن أرشدك الى مكانه في الليلة الماضية. انه في خارج المنزل وله سقف أبيض، وكوني على حذر في استعماله حتى لا يغرقك.»

وابتسم وتركها وهي تشكره ثم قفزت من السرير لتتفقد أشياءها، فوجدت ملابسها قد ابتلت، ما عدا النقود وجواز السفر.

وأخذت ملابسها الجافة وذهبت تأخذ حماماً، وأدركت أن نصيحة غرانت لها بأن تلزم الحذر كانت في موضعها، لأنها أخذت تدير العجلة التي تتحكم بالماء ببطء وحذر الى أن امتلأ الحوض الذي كان منعشاً وفي حالة جيدة وصافية.

وجففت جسمها وشعرها بنشفة وجدتها معلقة في متناول يدها، وثبتت شعرها بشابك الشعر القليلة المتبقية معها. ان عليها اعداد قائمة بالأشياء الكثيرة التي تحتاجها عندما تتاح لها الظروف لاعادة تنظيم حياتها. انها تستشيط غضباً عندما تتذكر الأشياء التي تركتها وراءها في اليخت، ولكن لم يكن أمامها من سبيل آخر كان الموقف بالغ الخطورة حتى بدون أن تحاول حمل الأشياء الصغيرة التي ربطتها حول وسطها قبل أن تسبح الى الشاطئ. ولم يكن في استطاعتها شراء السكاكر، وان كان مجال الاختيار أمامها محدوداً.

وعادت الى المنزل، تسرع بترتيب الفراش، ووضعت قليلاً من أحمر الشفاه وتفقدت نفسها، ثم توجهت في تردد نحو الباب الرئيسي وهي لا تدري أن آدم غرانت موجود في الداخل، ودفعت الباب ببطء فانفتح، ونظرت الى داخل الغرفة وسمعته يقول لها:

«حسناً يمكنك الدخول.»

ورأته يقطع بعض شرائح اللحم من المقلاة. فتساءلت بينها وبين نفسها عن مفاجأة طعام الافطار التي تنتظرها، وسألته اذا كان في امكانها أن تساعده. فطلب منها اعداد المائدة وقال لها انها ستجد كل شيء في الخزانة. ولاحظت المعلبات الكثيرة المصفوفة فوق الرفوف فقالت له:

«أعددت العدة لنفسك كاملة تماماً كأنك مقدم على فترة حصار.»

«لا بد من أن آخذ الاحتياطات اللازمة. هل تفضلين القهوة؟»

وأشعل الموقد لتقوم هي نفسها باعداد القهوة، ولاحظت أنه استطاع أن ينظم حياته في نطاق التسهيلات التي لم تكن فقط محدودة جداً، وانما بدائية جداً وعلى نحو لا يطيقه الا أولئك الرحالة الذين اعتادوا العيش في الخيام. واستمعت اليه بدون تعقيب وهو يقول لها انه يحصل من محطة الرصد الجوي على أطعمة سريعة التلف وهم يحفظونها في ثلاجة ضخمة، ولكنها لم تدرك الا بعد مضي فترة مغزى وجود قدور البن والشاي الصغيرة التي لديه وصفائح المواد المنظفة والصفائح الكبيرة التي تحوي السكر والسلع الجافة الأخرى.

وبمضي الوقت بدأت عملية اعداد طعام الافطار تتحسن، وبدأت هي تستعيد الاحساس بضبط النفس الذي ما زال قوياً بينها وبين الرجل الذي هبّ لانقاذها ليلة امس. وطلبت منه سيكارة فأعطاها علبة سكائره كلها، فشكرته وقالت له وهي تبتسم:

«اعرف انني ضيفتك غير المدعوة، ولكنني اطمح في مزيد من كرمك، واطلب منك ان تمد فترة اقامتي في بيتك لمدة ساعة اخرى او نحو ذلك.»

فرفع حاجبيه وظل صامتاً، فأضافت قائلة:

«أريد أن أغسل ملابسي وأصفف شعري، ألا يوجد لديك أي نوع من وسائل غسل الشعر؟»

فرد عليها بجفاف:

«كلا، لا يوجد لدي شيء من هذا القبيل، ولكنك تستطيعين استخدام أي شيء موجود في البيت.»

وعندئذ بدأ اطمئنانها يتذبذب، ولكنها حاولت أن تحتفظ برباطة جأشها، وقالت له:

«انك تراني الآن في أسوأ مظهر لي، ولكنني فعلت ما لم يفعله أحد من قبل.»

فنهض قائلاً:

«علي أن أخرج الآن، وسوف تتاح لك ساعة تقريباً تعودين خلالها الى أحسن مظهر.»

وأخذ المنظار وشيئاً آخر من درج المكتب، وطلب منها ألا تستهلك كل مياه الخزان والا فسوف يتحتم عليها أن تقوم بتشغيل المضخة لملء الخزان من جديد، وركب سيارة جيب وانطلق بها من خلف المسكن. وراحت روبين تبحث عن اجابة لعدة أسئلة جالت في خاطرها. فكم من الزمن أمضى آدم غرانت في هذا الكوخ الصغير الذي يعتمد فيه على مضخة لتزويده بامدادات المياه، ولا توجد فيه أي وسائل للراحة بتاتاً؟ بل ما الذي يفعله هنا؟ هل هو أحد علماء الطيور؟ ان جزيرة الزينا هذه فيها الطيور النادرة التي اتخذت أعشاشها لأول مرة بدون أن يتمكن أحد من تفسير سبب أو كيفية مجيئها الى هنا. سمعت الآخرين يتحدثون عنها، الا أنها لم تعر ذلك التفاتاً، وتمنت الآن لو أنها اهتمت بتلك المسألة. فالمنظار له علاقة بهذا على ما يبدو... ثم تذكرت ما حدث بعد ظهر أمس عندما عاد ريمون مارش وزمرته الصغيرة من الغزوة التي قاموا بها على الشاطىء وهم في غضب شديد. وقع حادث ما، واستطاع رجل قوي جريء أن يطردهم من الجزيرة. وبدأت الأحداث تفسر بعضها البعض في ذاكرتها لتفسر لها الملاحظة الساخرة التي أبداها غرانت مساء أمس عندما سألها عن مكان أصدقائها. لا بد أن يكون آدم هو ذلك الرجل القوي!

وابتسمت روبين في ابتهاج فتوهج وجهها بالضياء، وتمنت لو أنها رأت ذلك

المشهد لتلمس التعبيرات التي ارتسمت على وجه ريمون وزمرته من المتملقين الأذلاء. وتملكتها فجأة رغبة جارفة في أن تبلغ آدم غرانت الى أي مدى ارتفع في نظرها...وذلك برغم أنه يميل الى النظر اليها كواحدة من أفراد تلك المجموعة الغوغائية.

وقامت روبين باعداد حبل لنشر ملابسها بعدما غسلتها بالسائل المنظف الذي استعارته منه، وسرعان ما جفت بفعل الهواء الدافئ المشمس، وقامت بتنظيف مكان تناول الافطار وتنظيم غرفة الجلوس لتصبح في مثل بهاء الغرف القائمة على سطح اليخت. ودارت في أرجاء المكان وهي تقاوم الاغراء بالعبث في صفحات أكوام المذكرات والكراسات الموجودة فوق المكتب، ثم أمسكت بمذكرة موضوعة فوق كومة من الاوراق الموسيقية ووجدت بين الصفحات ورقة منفصلة يبدو أنها جزء من موسيقى أوركسترالية عليها ملاحظات وعلامة استفهام مكتوبة بالقلم الرصاص في هامش المقدمة. وتساءلت اذا كان من هواة الموسيقى، الا أنه لم يكن لديه أي مسجل لسماع الموسيقى أو أي شيء يشبه أية آلة موسيقية، وتركتها لتنظر الى التمثال النصفي العاجي الذي ظنت أول الأمر أنه لأحد كبار المؤلفين الموسيقيين، ولكنها عندما تفقدته عن قرب لم تجده يشبه أحداً من تعيهم ذاكرتها. انه لا يشبه أي شخص مشهور، وهو ان كان يشبه إنساناً فهو آدم غرانت، شعره كثيف غير مجعد كالتمثال العاجي بملامحه المثالية التي تشبه تماثيل الاغريق.

وهزت رأسها وراحت تفكر أنه لا بد أن يكون هناك شخص آخر يقيم هنا لكي يتبادل مع زميله مراقبة وتسجيل أنواع الطيور التي تفد الى هذا المكان وعلى أي حال فليس هذا من شأنها، وهي لا بد وأن تبدأ في الرحيل من هنا حالما تعيد ترتيب حياتها. والشيء الواضح أمامها الآن هو أنها لم تكن راضية اطلاقاً عن أناس مثل كارلنغ و ريمون مارش أو من يشبههما ممن كانوا يقدمون الاعانات بلا اكتراث... انها لا تريد اعانة من أحد.

وذهبت لجمع ملابسها الجافة، ونظرت الى نفسها وهي تنتظر جفاف ملابسها لتغير الملابس التي ترتديها وأشفقت على نفسها وانهمرت دموعها وهي تتمنى أن تغمض عينيها وتفتحهما من جديد لترى أن ستة أشهر من حياتها قد محيت، وأصبحت كأنها لم تكن.

وسمعت صوت سيارة تتوقف وينزل منها رجل، ولكنه لم يكن آدم غرانت وانما كان شاباً أزرق العينين أخذ ينظر الى هيئتها الجذابة في دهشة وابتهاج، وقال لها:

«أأ أنت هنا... لم أصدق عندما علمت بهذا»

وتقدم خطوة الى الأمام ومد يده ليصافحها وهو يقول لها:

«أنا توني ستيفنز هل ما أراه حقيقي هل أنت انسان حقيقي؟

سوف أغادر هذا المكان وأختفي ان لم تمدي يدك لمصافحتي».

فاتجهت اليه وصافحته وقد لاحظت احمرار خديه وسألته:

«هل تعمل في هذا المكان؟ السيد غرانت سيعود في أي لحظة.»

«كلا، أعمل في محطة الرصد الجوي في وسط الجزيرة، وعليّ أن أعود وأرد على تلك الرسالة...»

وأخذ ينظر اليها في دهشة ويحدق فيها بنظرة تحمل تعبيراً كريهاً اعتادت عليه روبين خلال الأشهر القليلة الماضية.

وسألته في حدة:

«أية رسالة تقصد؟»

«رسالة تقول انك هنا، تسببت في حدوث هياج شديد... أعتقد أنك روبينا ... الآنسة وابن... ابنة...»

فامتقع لونها وتوترت ملامحها فأضاف بسرعة:

«أنا شديد الأسف، ألا أكون لبقاً معك، أبلغتك فقط بما جاء في الرسالة وآسف جداً لما سببته لك من ازعاج.»

ولم تكترث روبين بما سببته لها عدم لياقته من ايذاء. كان صبياً لا يزيد عمره عن عشرين عاماً. وسألته مرة أخرى:

«أية رسالة تقصد؟ لا بد أن خطأ ما قد وقع. لا أعرف أحداً يمكنه أن يبعث لي برسالة.»

وقبل أن يبدأ في الشرح أحسّت بغصة في صدرها وهي تتوجس خيفة من الأمر. وقال لها:

«تلقينا رسالة باللاسلكي من السيد كارلنغ انهم قلقون جداً عليك، ولا يعرفون كيف تخلفت عن اليخت، أو ما اذا كنت موجودة في الجزيرة أم لا. اكتشفوا صباح اليوم غيابك عن اليخت، لا بد أن أعود الآن.»

وأسرع بالقفز في سيارة الجيب الصفراء، وانطلق بها بدون أن يتمكن من سماع صياحها وهي تطلب منه التوقف، وترجوه ألا يبلغ اليخت بأنها موجودة هنا. فهي لا تريد العودة الى اليخت. واختفى بسرعة وسط أشجار الغابة وقد أدركت أنه لا جدوى من اللحاق به. وهدأت نفسها وبدأت تفكر فيما يجب عليها أن تفعله الآن. جيرالد كارلنغ سيستشيط غضباً ويشعر بأن كبرياءه جرحت لأنها هربت منه. وتخيلت ما سوف ينزل بها من عقاب بعد أن يحضر كارلنغ ويتسلمها بابتسامته الساخرة ليعيدها الى اليخت. وربما لا يفعل هذا بل يتركها تهيم على وجهها في الجزيرة. انها تأمل ألا يفعل، ولكن ترك الأمر للأقدار فيه مخاطرة هائلة. وتمنت لو أنها تمكنت من ايقاف توني ستيفنز قبل أن ينطلق بسيارته. ورأت عندئذ سيارة جيب تبرز من وسط الأشجار وتتجه الى البيت.

وتنهدت بارتياح وهي تقول لنفسها أن الفرصة لم تفت بعد وأن آدم غرانت سوف ينقلها الى المحطة لتشرح لهم الموقف، وتطلب منهم الغاء الرد على الرسالة والقول بأنه حدث خطأ أو شيء من هذا القبيل. وسألها آدم غرانت:

«ما الذي يزعجك؟»

«أرجوك أن تأخذني الى محطة الرصد حتى...»

فقال لها وهو يمسك بكتفيها:

«اهدأي وقولي لي ماذا حدث، انك مضطربة.»

فردت عليه وهي تلتقط أنفاسها:

«لا بد أنك قابلت سيارته في الطريق.»

ولم ترفع عينيها عن وجهه، وكان ما زال ممسكاً بكتفيها وهي تحاول أن تقنعه بأن الأمر عاجل، وقالت له:

«أرجوك أن تفهم، ان الأمر سيستغرق وقتاً طويلاً لأشرح لك السبب، ولكنني لا أرغب في العودة، وقد بعثوا برسالة لاسلكية الى محطة الأرصاد لكي...»

«ولكن ألا تدرين، أيتها الحمقاء الصغيرة، أنه يجب عليك ابلاغهم بأنك في أمان، أم أنك تعبأين بهذا؟ واذا لم تعودي اليهم فالى أين تذهبين؟ انك لا تستطيعين البقاء هنا.»

«لا أريد البقاء هنا، وليست لي رغبة في هذا، ولكنني لن أعود الى هذا اليخت، ولا يهمني الى أين أذهب أو أين أقيم ما دمت بعيدة بقدر المستطاع عن جيرالد كارلنغ.»

وتخلصت من قبضة يديه وهي تبدي استياءها وقالت:

«انك لا تعبأ، كما أن أحداً لا يهتم...»

وأمسك بذراعها وهو يقول:

«حسناً، فهمت قصدك، وان كنت لا أعرف القصة كلها الا أنني فهمت جوهر الموضوع ستبقين هنا.»

«ولكنني...»

«سوف أعالج الأمر، أعدي لنفسك شراباً والزمي الهدوء، ولن أغيب طويلاً.»

ووقفت ترقب السيارة التي استقلها آدم غرانت الى أن اختفت وهي تعد الدقائق التي كانت تمر كأنها ساعات. ثم دلفت الى الداخل تعد لنفسها شراباً، أخذت تحتسيه بأصابع مرتعشة وهي تسأل نفسها: كيف يمكنها ان تهمل رجلاً

غريباً يفهم مدى خوفها من جيرالد كارلنغ ومن بحثه عنها، وما كان سيترتب على ذلك من نتائج اذا هي لم تهرب من يخته الذي تحول الى سجن. ووسط مشاعر القلق الشديد التي استبدت بها عاد آدم غرانت.

وكان وجهه متجهماً وقلقاً وقال لها ان اليخت الكيرون يقف على مسافة عشرة أميال تقريباً من الجزيرة، وأنه وصل الى المحطة بينما كان ستيفنز يرسل بالرد على الرسالة.

فسألته وهي تلتقط أنفاسها:

«وماذا حدث، أكمل.»

«تحدثت الى كارلنغ.»

«ماذا قال لك؟ وماذا قلت له؟»

فنظر اليها آدم وقال:

«القصة التي رواها لي تختلف عن القصة التي رويتها لي ليلة أمس. ولكنني أدركت أنك سببت له قدراً كبيراً من القلق والضيق... انني في دهشة... هل أنت الطفلة الصغيرة التي أشفق عليها؟ طفلة روبيرت واين الممول الذي انتحر منذ ستة أشهر.»

فاسترخت في مقعدها وأخذت تنظر في تجهم وقالت:

«نعم، انك تفضل أن تصدق رجلاً آخر، أليس كذلك؟ ولكن أبي لم يتخلص من حياته، كان حادثاً عرضياً، لقد تناول أقراصاً منومة بعد تناوله الشراب وأدى ذلك الى وفاته، واياك أن تقول هذا عن أبي مرة أخرى.»

قالت ذلك وهي تصيح في وجهه بتحد وأضافت:

«وبالنسبة اليّ كنت مدللة، ولكنني لم أكن متهورة الى حد البحث عن رجل مثل كارلنغ.»

«كان صديقاً لأبيك، فلماذا يسعى اذاً لاغوائك؟»

«لم يكن صديقاً لأبي.»

«بل يقول انه كان كذلك، ولذلك اعتقد أن قيامك برحلة بحرية سوف يخرجك من جو المأساة التي تعيشين فيه. والعمل الذي أسنده اليك لمرافقة سبرينا كان مجرد وسيلة لارضاء كبريائك، وقال أيضاً انه قدم لك هدايا عديدة ثمينة من المجوهرات.»

«هذا غير صحيح، أراد فعلاً أن يقدم لي مجوهرات، وقد تحليت بقطعة منها في احدى المرات، ولكنني تركت كل شيء على ظهر اليخت. كانت هناك صلة عمل تربطه بأبي، وعن طريق تلك الصلة حصلت على هذا العمل الذي كنت في أشد الحاجة اليه.»

«لم تصادفك بالتأكيد أية صعوبات في الحصول على عمل، لقد حصلت كما أعتقد على قدر من التعليم.»

«هذا ما ظننته في البداية، ولكن الحياة العملية تتطلب تخصصات لم أكن مؤهلة لها.»

«أليس هناك أحد من أسرتك على قيد الحياة؟»

«ماتت أمي، وليس لي سوى أخت، أقمت معها، وهي متزوجة منذ سنتين الا أن زواجها يتداعى، ولم أستطع تحمل المشاجرات بين الزوجين اللذين أخذ كل منهما يشكو لي الآخر، مما جعلني أكاد أجن، فكان التحاقي بهذا العمل على اليخت هو الحل المناسب.»

ونظرت اليه فوجدته يضغط شفتيه فصاحت فيه:

«الآن تقول لي انك آسف؟ وتذكر لي كل الملاحظات التافهة المبتذلة التي تفوهوا بها عني، ثم تتركني أمارس حياتي بأفضل ما أستطيع؟»

«كلا، انني لن أتعاطف معك، فهذا هو ما فررت أنت منه، وبالاضافة الى هذا فأنت تشعرين الآن بالأسف الشديد لما أنت فيه من حال.»

ونهضت وسارت بضع خطوات الى النافذة وقالت:

«ربما كان هذا هو العزاء الوحيد أمامي الآن، انك لم تبلغني بعد بما قلته

لكارلنغ، أعتقد أنك قلت له انك ستكون ممتناً له لو حضر وأخذني من عندك بأسرع وقت ممكن.»

«كلا، لم أفعل هذا.»

«برغم أنك صدقته؟»

«ولكنني لم أصدقه.»

واقترب حاجباها من بعضهما البعض وهي ترمقه وقالت له:

«اذاً لا بد أن تصدق أحدنا.»

فأجابها بأنه انتهى من ذلك فعلاً، وقال لها ان كارلنغ معروف بعباذله وانغماسه في الملذات. فسألته اذا كان يعرفه، فقال لها انه سمع عنه، وعندما طلبت منه أن يخبرها بما قاله لكارلنغ تنهد وقال:

«قلت له ان الفتاة التي تبحث عنها ليست في الجزيرة على ما أعلم، ونصحته بألا يضيع المزيد من وقته ويقلق نفسه من أجل فتاة صغيرة حمقاء. وحذرته أنه في حالة نزوله الى الجزيرة نتعامل معه ونعيده الى وطنه على أول قارب يغادر الجزيرة.»

ونظر اليها في برود وسألها:

«أليس هذا هو ما كنت تريدين مني أن أقوله؟»

«نعم.»

وشعرت روبين بمزيج من الألم والارتياح وهي تنظر الى السماء الزرقاء التي يكتنفها السحاب. وقالت لنفسها انه فهم مشكلتها، ولكن أما كان يجب عليه أن يوفر عليها مشقة سرد قصتها؟

وقال لها آدم في هدوء:

«كنت أعرف النتيجة، اذ أخذ كارلنغ يضحك ووافقني على رأيي. وعليك أن تعرفي الآن أن هذه هي اللغة التي يفهمها.»

وأحست فجأة بالملل وقالت له وهي ترمقه:

«طبعاً، رجل في مواجهة رجل، كان عطفاً منك أن تهتم بمشكلتي انني ممتنة جداً لك.»

وصمت لحظة ثم ابتسم بسخرية وقال:

«أهذا كم هي كلمة مهذبة وتقليدية. لا تشغل بالك في اي حال، تمت تسوية المشكلة الأولى على الأقل.»

فقالت له في حدة:

«أقول المشكلة الأولى؟ تمت تسوية المشكلة الوحيدة فيا يخصني أنا، حالة الغرق انتهت وهي على وشك أن تنتهي حالما أتمكن من شراء تذكرة السفر.»

وقامت تجمع الملابس التي جفت على الحبل، وردت اليه شاكرة تلك الملابس التي أعارها اياها، فأخذها منها وهو يهز رأسه وقال:

«لم تتم تسوية المشكلة كلها بعد يمكنك شراء تذكرة للسفر على أول سفينة تغادر الجزيرة، ولكن سيتحتم عليك الانتظار لفترة طويلة لأن السفينة التالية لن تصل قبل مضي أثني عشر أسبوعاً.»

«اثنا عشر أسبوعاً؟ أتعني أنني سأظل ضائعة في الجزيرة لمدة اثني عشر أسبوعاً، أي أقل من ثلاثة أشهر، يحسن بنا الآن أن نتناول القهوة هل رأيت؟ هناك اذاً أشياء أخرى لم تتم تسويتها، وهذه هي البداية فقط.»

٣ ـ آدم و... حواء!

يا للضياع! في أرض غريبة بدون مال أو وسيلة للرحيل! تلك هي الأبعاد الكاملة لورطتها كما بدت واضحة آخر الأمر جلست روبين وقد انحنى ظهرها وشعرت أنها تضاءلت أمام نفسها وكان ادراكها لهذه الأبعاد سبباً في اصابتها بوعكة في المعدة. أصبحت ضائعة ليس فقط لفترة تبدو كالأبدية وفي جزيرة أازينا التي يبلغ عدد سكانها جميعاً عشرة أفراد فقط، وحيث لا توجد أية محلات أو فنادق أو أي مكان يمكنها أن تقيم فيه خلال فترة الأبدية هذه ولكنها وقعت أيضاً في مشكلة لا تعرف مداها، ولا يبدو أن لها حلاً بسبب المساعدة التي طلبتها من رجل غريب.

ولمس كتفها وهو يقول:

«أعتقد يحسن بنا الخروج لنتمشى، فقد يساعدنا هذا على التفكير».

وتركته يقودها خلال الممر الوعر حتى الشاطىء.. حيث انقذها منذ ساعات قليلة، تبدو لها الآن كأنها زمن بعيد.

وقال لها في بطء:

«لم يكن أمامي من بديل سوى أن أتظاهر بأنني أرتبط بك، اذ كانت تلك هي الوسيلة الوحيدة لأقنع أفراد طاقم المحطة بأن سوء فهم قد حدث، وأنك لست الفتاة التي يبحث عنها كارلنغ، وما زلت غير متأكد اذا اقتنعوا فعلاً. الا أن هذا الوضع يتفق مع ما يعرفونه من أن لي خطيبة».

فقالت في تململ:

«يا الهي، كم يبدو هذا رائعاً! فأنا لست فقط ضائعة، وانما اصبحت خطيبة شخص آخر، ماذا أنا فاعلة؟»

«لا أعتقد أن باستطاعتك أن تفعلي شيئاً. فأنت هنا وعليك تحقيق أكبر فائدة من هذا الوضع».

فصاحت قائلة:

«نعم، ولكنك كما يبدو، لا تدري معنى هذا. فعليّ أن أعيش لمدة ثلاثة أشهر أوفر لنفسي فيها الطعام والمأوى، كما أنني بحاجة الى ملابس وليس في حوزتي أي شيء تقريباً. وعليّ أن أشتري تلك الأشياء، وأن أوفر مبلغاً لشراء تذكرة لتلك السفينة حالما تصل، وعليّ بعد ذلك أن أعود الى انكلترا».

وانهارت وقد غلبتها الدموع، وأحست بيده تمسك بها وتهدىء من روعها وهي تصيح:

«يا للعنة، سأظل أيضاً كالمشلولة العاجزة».

وهزها فجأة وأدارها لتصبح في مواجهته وقال لها:

«أنصتي الي، لا فائدة من الغضب والسباب. تعالي اجلسي وهدئي من روعك».

ورافقها على طول الشاطىء الى كتلة خشبية مغروسة في الرمال في مكان يرتفع عن مستوى موجات المد والجزر. وقدم لها سيكارة وأشعل لنفسه أخرى ثم قال:

«المال لن يفيد في هذه الحال. فلو أن كارلنغ بكل ما لديه من ملايين الجنيهات، كان جالساً هنا على الشاطىء، وليس معه اليخت الخاص به، فانه ما كان ليفترق عنك بالمرة، ولأصبح محتماً عليه أن ينتظر السفينة التي ترحل به مثلما تفعلين أنت تماماً».

ردت عليه في يأس:

«ولكنني لا أستطيع البقاء هنا لمدة ثلاثة أشهر»

«ليس أمامك مجال للاختيار»

هزت رأسها وأخذت ترقب الأمواج العالية تتكسر فوق الصخور محدثة زبداً كالثلج. أحبت البحر دائماً وأحبت وحدة الشاطئ، المهجور حيث الحركة الوحيدة تصدر من البحر، والصوت الوحيد أغنية البحر وأصوات الطيور التي تحوم فوقه. كانت تلتمس الأمان من البحر في تلك الفترات القليلة من حياتها عندما أحست باحتياجها الى الأمان، وكانت أسعد فترات العطلات تلك اللاتي أمضتها في جزيرة أيغينا اليونانية حيث كان أبوها يمتلك فيللا، ومنذ وفاة أمها لم تعد الى تلك الجزيرة على الاطلاق. غير أن الجزيرة الصغيرة القريبة اللاتي تعيش فيها الآن ليس لها أي سحر، وهي تشعر بالغربة فيها، وليس لديها أي تفسير لذلك، وسألت آدم:

«من غيرك يعيش في الجزيرة بخلاف أفراد طاقم المحطة؟»

«هل سمعت عن هوجريك وولف؟»

«ذلك الكاتب الفيلسوف، أم أنه شخص آخر؟»

«هو نفسه، يعيش في شمال الجزيرة على بعد نصف ميل تقريباً من المحطة. ويقيم في فيلا لسان أرضي داخل في البحر، أصبحت المنطقة حولها تشبه حظيرة حيوانات، ويعيش معه مرافق مشاكس ومفسد، وأعتقد أنتيها لن يرحبا بلك.»

«لم أكن لأطلب منها ذلك.»

فهز كتفيه بعدم اكتراث وقال لها:

«أحذرك، فمجال الاختيار أمامك محدود، ويقيم في الجزيرة أيضاً شخص يشبه أولئك البيض الذين يتسكعون في جزر المحيط الهادئ. وهو يدعى غيفون أصيب في الحرب الماضية واستقر أخيراً هنا، وهو يهوى صيد السمك والتسكع لغير ما غاية أو هدف، ويعامله أفراد طاقم المحطة معاملة طيبة جداً.»

«ألا يستطيع أحد أن يفعل له شيئاً؟»

«وكيف؟»

«بأن يساعده أو يعالجه بالصورة الواجبة في مثل حالته تلك.»

«لن يقبل هذا، وهو يريد أن يتركه الناس وحده في سلام، فهو سعيد تماماً بحياته.»

فردت عليه في عبوس:

«نعم، ولكن لا بد أن يفعل أحد ما شيئاً لاعادته الى وطنه وأهله.»

فقال لها آدم في حدة:

«ليس ثمة انسان يمكن أن يقوم بشيء من هذا القبيل، هل ترحبين أنت الآن بأي تدخل في شؤونك؟ ماذا تفعلين لو جاء أحد ما وحاول انتزاعك من الحياة التي تحيينها الآن؟»

«الأمر يختلف، فأنا أعرف ماذا أفعل.»

«وهو الشيء نفسه بالنسبة اليه، وليس هناك أي فرق.»

«كلا ربما يكون هناك فرق.»

وأضافت تقول بلهجة لاذعة:

«ولكنني لا أستطيع البقاء هنا، أي الاقامة معك لمدة ثلاثة أشهر.»

«انه المجال الوحيد المتاح أمامك للاختيار ـ شئت أم أبيت. فأنا الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يهيء لك المأوى، ويهيء لك أيضاً عملاً بسيطاً حتى يمكنك توفير ما لديك الآن من مال فسوف يفيدك فيما بعد.»

وسألته وهي لا تعرف ما اذا كان جاداً فعلاً:

«وأي نوع من العمل أؤديه؟»

«انني في حاجة الى من يساعدني في اعداد الأفلام وتدوين البيانات.»

«ولكنني لا أفهم شيئاً من مبادىء التصوير الفوتوغرافي.»

«يمكنك أن تتعلمي ذلك.»

«نعم ولكن هذا مستحيل، ولا يمكنك أن تكون جاداً.»

وأخذت تنظر اليه في تشكك وهي تتلمس من ملامحه ما يقنعها وقالت له:

«أعلم أنك تبذل جهدك لمساعدتي ولكن... ما الذي ستقوله خطيبتك لا شك جال

هذا الهاجس في خاطرك.»

فقطب جبينه وقال لها:

«كانت لي خطيبة، ولكنها أصبحت الآن في خبر كان.»

فنظرت اليه في دهشة ولزمت الصمت في حين أخذت الأفكار اليائسة تدور في رأسها وهي لا تجد حلاً لمشكلتها، فهي لا تستطيع أن تقيم مع آدم غرانت، ولا تستطيع الاقامة في محطة الأرصاد الجوية، فإلى أين تذهب؟ وفجأة لمعت أمام عينيها فكرة مثل ضوء يغشى البصر، فقالت لآدم وهي تشعر كأنها انتصرت:

«محطة الأرصاد يمكنها أن تبعث برسالة لاسلكية الى أي جهة لكي تنتشلني من هذه الجزيرة.»

«آسف، ألا تظنين أنني كنت سأقترح ذلك لو كان مجدياً. لا يمكن استدعاء سفينة تبعد مئات الأميال عن هذا المكان الا في الحالات الطارئة.»

«ولكن هذه الحالة طارئة؟»

«كلا، انها ليست مسألة حياة أو موت.»

كانت لهجته الحاسمة كسيل من ماء مثلج ينهمر فوق رأسها، وأدركت أنه صادق فعلاً فيما يقول. فالمحنة التي وقعت فيها لا تتوفر فيها الشروط التي تجعل منها حالة طارئة، كما أنها غادرت بخت كارلنغ بمحض ارادتها، ولا يمكنها أن تلوم الا نفسها بالنسبة الى اي عواقب تترتب على هذا.

ووقف آدم غرانت وقال لها ان أمامها وقتاً طويلاً لتقتنع بالفكرة، وعليها أن تكف عن المعارضة، وسألها اذا كانت تستطيع طهو طعام الغداء الذي حان وقته. فقالت في تردد:

«لا أعرف، نعم أعتقد أنني أستطيع...»

«أتوقع منك أن تصبحي مفيدة.»

ولم يكن أمامها سوى اطاعة ما يأمرها به، كما لم يكن أمامها أي بديل آخر للاقتراح الذي ذكره لها آدم غرانت. ولم يكن هناك أي سبب للاعتقاد بأن

غرانت كذب عليها فيما يتعلق بالقدمات المتاحة في الجزيرة كما أنه لا يمكن أن يكون قد تطلع اليها كرفيقه يعايشها كي يستمتع بسحرها.

وذهبت لاعداد الطعام، لكنها عندما لاحظت نظراته اللاذعة اختارت أهون الطرق، وفتحت احدى علب اللحم المحفوظ وقامت بقلي اللحم في الزبدة، وفتحت علبة فاكهة محفوظة وأخذت تراقبه أثناء تناول الطعام، وضايقها أنه لم يصدر عنه أي تعليق حتى تهب للدفاع عن نفسها. وقالت لنفسها انه ما من أحد يستطيع أن يطهو أي شيء بصورة جيدة بدون الاستعانة بالمواقد والأفران المزودة بعدادات لضبط الحرارة، وبدون أن تتوفر له الخلاطات والكثير من البيض، فالطهو أصبح علماً. ولاحظت أن آدم غرانت أخذ يضحك وقال لها انها لا شك كانت طفلة مدللة، وانها سوف تتحسن بمزيد من التدريب، فقالت له:

«هذا اذا كنت سأمكث هنا لأتدرب.»

فقال لها انها ستمكث هنا. وطلب منها أن تخرج بعد الظهر لتستكشف المنطقة المحيطة بالبيت. وأشار عليها بأن تسير قرب الشاطىء وألا تسلك الطريق المؤدية الى أعلى التل، ويمكنها أن تصل الى المحطة بعد حوالي ميل ونصف الميل. وقال انه لو كان لديها المزيد من النشاط فيمكنها أن تصعد الى المنطقة التي يقيم فيها وولف. وأضاف قائلاً:

«سوف أرافقك لمشاهدة الملاذ الذي تأوي اليه الطيور، فالطريق بعيدة وشديدة الوعورة، لا يمكنك الذهاب اليها سيراً على قدميك.»

وخرج آدم غرانت بدون أن يذكر لها شيئاً عن المكان الذي ينوي التوجه اليه أو عن موعد عودته، وبدأت الأفكار اليائسة تتملكها من جديد وهي تتذكر أن عليها قضاء ثلاثة أشهر في تلك الجزيرة المهجورة، وما كانت لتصبح كذلك لو كانت نصف متحضرة أو كانت فيها امرأة أخرى يمكنها أن تبثها شكواها وتثق بها. وطاف بخاطرها آدم غرانت... وهزت رأسها، فهو لا يصلح لهذا الدور، وهو رجل غامض يخفي في صدره سراً ما برغم أنه من جانب آخر يميل الى الدعابة وله

روح مرحة. وفجأة قررت الموافقة على اقتراحه والخروج للتعرف على الجزيرة.

ها هي الشمس ساطعة، والهواء المنعش يلطف من درجة حرارة الجو التي لا يمكن أن تكون في قسوة الحرارة التي شهدتها في باناما. وبعد قليل اختفى المنزل عن بصرها، ولاحظت الطريق الملتوية المؤدية الى المنزل، وهو الطريق الذي يختفي وسط أشجار الغابة ثم يعود الى الظهور من جديد، وعن يسارها وأمامها رأت البحر الممتد كما رأت شجر البلوط وسقوف الأبنية التي لا بد أن تكون خاصة بمحطة الرصد. الا أنه يبدو أن آدم غرانت أخطأ عندما قال لها ان المحطة تبعد مسافة ميل ونصف تقريباً. لأنها تقترب الآن من النتوء الجبلي الداخل في البحر، وما زال أمامها خليج فسيح يظهر وراءه برج المحطة.

واتخذت من أشجار البلوط معالم تسترشد بها حتى وصلت الى بداية الخليج برماله الصفراء. فتركت الطريق التي سلكتها وعرجت الى شاطىء الخليج، ومن هناك ظهرت لها معالم المنطقة بوضوح بما في ذلك المسكن الصغير الذي يكاد يختفي وراء الجانب المحمي من الرياح في اللسان الأرضي الداخل في البحر، ويبدو أنه مسكن ذلك الشخص الذي يهوى التسكع لغير ما غاية أو هدف.

وعند حافة الشاطىء، شاهدت قارباً مقلوباً، وبالقرب منه مخلفات علب من الصفيح ومواد أخرى تشير الى أنه كانت تجري هنا عملية لاصلاح القارب لكن لا يبدو أي أثر لمالك القارب، واتجه اهتمامها بعد ذلك الى المسكن فوق الصخرة. وكان يبدو كالمهجور ويمكن الوصول اليه من الطريق العلوية. وصعدت الى أعلى ثم توقفت لاهثة، وأخذت تمسح الخدوش التي أصابتها أثناء صعودها، وشهدت النباتات الخضراء والزهور الممتدة بجانب الصخرة. واقتربت من سور أبيض يحيط بحديقة واسعة ومنسقة بطريقة أدهشتها. لكنها ترددت في دخولها خشية ألا تقابل بالترحيب. ورأت الفيلا وسط الحديقة وهي مبنية من خشب الأناناس ويحيط بها أشجار الأناناس، وقد طلي سقف الفيلا باللون الأخضر الداكن. وبالك فيا يبدو نوع التمويه الذي لا يبعث على الاحساس بالود

والارتياح.

ولم يكن منظر الفيلا وحده هو الذي لا يبعث على الارتياح. فقد أخذت السحب المقبلة من الغرب تتجمع، وبدأ البحر يكتسب اللون الرمادي. وهنا قام رجل مسن ذو لحية يختلط فيها الشعر الأبيض والأسود بفتح باب الفيلا. وما أن لمح روبين حتى أوصد الباب مرة أخرى. وفي تلك اللحظة بدأ المطر يتساقط ثم ينهمر بشدة. فاحتمت روبين تحت الأشجار وهي تصب لعناتها. ولكن مياه الأمطار الناجمة عن عاصفة شبه استوائية بللتها تماماً، ولم تكن معها أية سترة أو رداء يقيها المطر. وعندما بدأت السماء تبرق وترعد اضطرت الى الخروج من وسط الأشجار. وأخذت تعدو في العراء في طريق العودة وهي تبدي سخطها وامتعاضها من ذلك الرجل داخل الفيلا الذي لا بدّ علم بأن العاصفة داهمتها. وبرغم ذلك أغلق الباب بدون أن يعبأ بها فلا عجب اذاً أن يحذرها آدم غرانت أنها لن تلقى الترحيب في تلك المنطقة. وأخذت تسرع وهي تعزي نفسها بأنها سوف تغتسل عندما تعود وترتدي أحسن ما عندها من مجموعة الملابس الكثيرة لديها، ولكنها تذكرت فجأة بأنه ليس لديها شيء، وأن هذه ستكون أكبر مشكلة تواجهها.

وفجأة سمعت صوتاً يناديها، فالتفتت لتجده توني ستيفنز يسرع نحوها وهو يلوح بيده، ولحق بها وأمسك بذراعها وهو يقول لها:

«لا يمكنك أن تشقي طريقك عائدة الى البيت في مثل هذا الجو»

وخلع معطفه الواقي من المطر ووضعه على كتفيها غير عابيء باحتجاجها وقال لها:

«رأيتك تهبطين من الفيلا، وحاولت أن ألفت انتباهك ولكنك كنت على مسافة بعيدة مني... أين آدم؟»

هزت كتفيها وقالت له أنها خرجت وحدها تستكشف الجزيرة، وحكت له عن الرجل الذي أغلق باب الفيلا في وجهها. فضحك توني وقال لها انه يعرفه فهو

يدعى هودريك المسن، وان كان يجب أن يدعى وولف فهو مثل كلب الحراسة الأصيل المعروف بهذا الأسم والذي لا يجارى في براعته. وصحبها توني الى مبنى أبيض مواجه للشاطىء مباشرة ودعاها للدخول لتناول مشروب. وفي الداخل وجدت قاعة كبيرة مليئة بالموائد والكراسي وفجأة وجدت نفسها محاطة بمجموعة من الرجال. فأخذ توني المعطف عن كتفيها وقال لهؤلاء الرجال:

«ارجعوا فأنا الذي وجدتها أولاً».

فرد عليه صوت عميق في جفاف قائلاً:

«وهل تريد أن تغرقها أنت أولاً؟»

وطلب أحدهم من بقية الرجال أن يذهب كل منهم لشأنه. فلاذوا بالصمت. وأحست روبين بأن هذا الرجل ذو شخصية قوية وله سلطة عليهم. انه لا يطاول غرانت في قامته ولكنه عريض المنكبين وله عينان زرقاوان وفم عريض. ويبلغ من العمر أربعين عاماً تقريباً. ابتسم لها ومدّ يده لمصافحتها قائلاً انه يدعى مارك ثورنتون، وأحست بالاعجاب نحوه فهو يتصرف بطريقة انسانية. وهو الشخص الوحيد الذي يمكنها التحدث اليه في هذا العالم. واعتذر لها عما بدر من هؤلاء الرجال الذين لم يروا أية فتاة منذ شهور عدة.

ودعا ثورنتون أحد العاملين في المبنى لاحضار رداء ترتديه روبين ريثما يتم غسل ملابسها وتجفيفها. وجاء الرداء في مقاس جسمها. وأثناء انتظار غسل ملابسها توثقت علاقتها بثورنتون، لدرجة أنها أصبحت تناديه مارك وأحست أنها كانت تعرفه منذ وقت بعيد. حدثها قليلاً عن نظام العمل في محطة الرصد، وأخبرها بأن أمه كانت انكليزية وأنه زار انكلترا لأول مرة العام السابق وعندما ذكر لها أن أمه عاشت في البلدة الصغيرة التي ولدت فيها أم روبين، بدا ذلك كأنه اكتشاف لعلاقة ظلت مفقودة فترة طويلة.

وقال لها:

«لو علمنا بأنك ستحضرين للحاق بآدم لأعددنا برنامجاً لاستقبالك».

وأشار الى أن الشاب هوارد لديه قيثارة يعزف عليها، وابتسم وقال لها انه مغتبط لأنها قررت المجيء من أجل صالحها وصالح آدم فليس من الملائم أن يعزل انسان نفسه. واضاف قائلاً انه ما زال يعتقد أن جزيرة ألزينا هي آخر مكان كان يجب أن يقع اختيار آدم عليه، برغم ذلك فانه يتمنى لها اقامة طيبة في الجزيرة.

وأحست روبين بأنه ما زال هناك الشيء الكثير الذي لا تعرفه عن آدم غرانت. وتملكتها رغبة في أن تروي قصتها كلها لمارك ثورنتون الذي لا بد أن يتفهمها، مما سيؤدي الى تحرك الأمور بصورة مختلفة. فهي ما زالت تشك في أن الخروج من ألزينا أمر مستحيل مثلما أقنعها آدم، واعتقدت أن مارك ثورنتون يمكنه أن يجد لها مخرجاً، ولكنها ترددت في الاقدام على هذا لأنها أحسّت بأنها انما تخون بذلك الرجل الذي مد لها يد المساعدة.

وقال لها مارك ان ألزينا أصبحت تشبه صومعة الناسك، كما أنها ملاذ تأوي اليه الطيور. وفي امكانها أن تحضر الى هذا المكان في أي وقت هي وآدم اذا ما شعرا بالملل، كما أن في استطاعتك المجيء للحصول على أي شيء تحتاجان اليه. فشكرته كثيراً وقالت له:

«عندما أنتهي من اعادة تنظيم البيت يمكنكم الحضور لتناول طعام العشاء معنا، ولكن عليكم باحضار المقاعد معكم».

«وسأحضر طعام العشاء أيضاً ان كنت...»

وتوقف مارك عن الكلام عندما فتح الباب ودخل منه آدم غرانت الذي رمق روبين بسرعة، وقال لها:

«توقعت مجيئك الى هذا المكان».

ووجه آدم التحية الى مارك ثم سأله اذا كانت لديه قطارة للعين لأن أحد الطيور أصيب اصابة طفيفة، فنادى مارك على هوارد وطلب منه احضار قطارة من المخازن الطبية. ونهضت روبين في تراخ وكأنها لا تريد ترك

تلك الصحية اللطيفة، ولاحظت أن ملابسها تم احضارها بعد تنظيفها وكيها وبدأت تستعد لخلع الرداء الذي أعاره مارك لها لترتدي ملابسها، ولكن مارك قال لها:

«لا تشغلي بالك بهذا، فالرداء مناسب لك ويبدو متناسقاً ومقاسه مضبوط عليك، وأتساءل لماذا لا يبدو هذا الرداء بمثل هذا الجمال عندما يلبسه هوارد صاحب الرداء؟»

واستمتعت روبين بنظرة الاعجاب التي أبداها مارك نحوها، ولكن آدم لم يبتسم لدعابة مارك، كما لم يبتسم عندما أضاف مارك قائلاً لروبين:

«لا داعي لاعادة الرداء سوف تحتاجين اليه في اعداد طعام العشاء.»

وبعد مضي دقيقة تقريباً كانت روبين تجلس بجوار آدم في سيارة الجيب وهي تحمل ملابسها فوق ذراعها، وتمسك بيدها لفافة صغيرة فيها قطارات طبية للعين، ونظرت الى آدم قائلة:

«داهمتني العاصفة.»

«وحدث لي الشيء نفسه.»

وأخذت السيارة تهتز بعنف وهي تشق طريقها، وعندما روت له روبين كيف أوصد ذلك الكهل الفظ الباب في وجهها لم يعقب آدم بشيء، فقالت له:

«انني أفزع من العواصف، كما لم آخذ معي سترة أو أي شيء من هذا القبيل.»

«علمت بهذا.»

فضمت روبين شفتيها وقد أحست بأن آدم يشعر بأنها بدأت تميل الى مارك وقالت له في تحد:

«أنا معجبة بمارك، فله شخصية جذابة.»

«شعرت بهذا، ولكن للأسف فهو متزوج وله طفلان، كما أنه يكبرك بعشرين عاماً.»

فردت عليه في غضب:

«كيف تجرؤ على هذا القول؟ لم أتعرف عليه الا من نصف ساعة، كيف تفكر بهذه العقلية؟»

«انني أفكر بعقلية منطقية تستطيع ادراك ما هو أبعد من طرف أنفي.»

«وبأي حق تفعل...»

«سوف نتحدث عن هذا فيما بعد.»

ودار بالسيارة في المنحنى المؤدي الى داخل الغابة، وتعبيرات وجهه تتسم بالجمود والبرود، وقال لها:

«الذي الكثير أقوله لك في هذا الشأن، ولكن من الأفضل أن أقوله في وقت لا تكونين فيه مهيأة لأن يجتاحك الغضب الشديد في اللحظة التي أحدثك فيها عن أمر كان أجدر بك أن تدركيه من تلقاء نفسك.»

«ولكن ما الذي فعلته؟ أعتقد أن من حقي أن أغضب في أي وقت أشاء، وانني لا أرى...»

وقاطعها قائلاً:

«حسناً، وفري هذا الكلام لما بعد، فلديك عمل أهم من هذا.»

واقترب من المنحدر المعشوشب المؤدي الى البيت وأوقف السيارة وطلب منها أن تتبعه في هدوء لئلا تفزع فرخ طائر بنى عشه وسط الأعشاب فتبعته وهي في حيرة من أمرها، ودار حول البيت ثم أشار الى وعاء قديم مفروش بأوراق الشجر، وسمعت صوت جناحين يصفقان وصياحاً حاداً مذعوراً، وانحنى ليرفع بيديه ذلك الفرخ الذي نبت ريشه منذ وقت قصير في حين نسيت روبين كل شيء وتملكها شعور طبيعي بالحنان، وانحنت نحوه لكنها تراجعت بسرعة عندما أخذ يصفق بجناحيه في ذعر، وسألته عنه فقال لها:

«انه الطائر المحاكي الذي يقلد الطيور الاخرى، عثرت عليه بعد ظهر اليوم وأصيبت احدى ساقيه بتشويه، وأعتقد أن هذه الساق أصبحت مفقودة.»

«ألا يستطيع التحليق في الجو؟»

«ليس بعد، ولكنه يستطيع اذا تمكنا من تغذيته.»

«مسكين هذا الطائر الصغير، ألهذا السبب ذهبت لاحضار القطارة الطبية؟»

فقال لها في رقة وعلى شفتيه لمحة تهكم وهو يرقب تعبير الحنان الذي بدا عليها:

«نعم، واعتقدت أن هذا سوف يحرك فيك مشاعر الحنان الأنثوي الحقيقي.»

«ليس هناك ما يخجل في ابداء العطف نحو مخلوق ضعيف، وفي أي حال أشفقت أنت نفسك عليه.»

«نعم، هو كذلك.»

ووضع الطائر برفق فوق فراشه المكون من ورق الشجر وقال لها:

«سوف نعد له شيئاً يأكله.»

وقام آدم بوضع كسرات من الخبز في وعاء يحتوي حليباً، وتعاون مع روبين في إطعامه برقة حتى لا يغص حلقه، وقال لها انه سيصبح قادراً على الطيران خلال أسبوع أو عشرة أيام. ووضعه في فراشه وهو يرفرف بجناحيه.

وقامت روبين بمداعبة الطائر الصغير ودهشت عندما استجاب لمداعبتها في الحال بتغريده الجميل، فقال لها آدم:

«سوف يقلد صوتك بعد فترة غير طويلة، انه من الطيور اللطيفة المسلية، حسناً هل أنت مستعدة للقيام بتلك المهمة؟»

«أتقصد رعاية هذا الطائر؟ طبعاً، ولكن هل أنت متأكد من عدم وجود قطط بالقرب من هذا المكان؟»

«لا توجد أي قطط في الجزيرة كلها، وفي الليل سوف أضعه في هذا الكوخ حتى يكون في مأمن.»

وانشغلت روبين تماماً منذ ذلك الحين بالطائر المحاكي، وأخذت تتفقده كل خمس دقائق وتطعمه كل ساعة بالطريقة التي شرحها لها آدم، وعندما غربت

الشمس قام آدم بوضع الطائر في الكوخ الصغير المقام خلف المسكن، وكان يستخدم في تخزين الوقود ومختلف المواد المنزلية. وجمع بعض الأغصان الصغيرة ونفضها فوق ورقة لتنزل منها عدة حشرات متنوعة، قام بخلطها في الماء، وقدمها للطائر، وقال لروبين أن الحليب والخبز لا يصلحان كطعام للطائر، فهو يحتاج الى غذائه الطبيعي، وجذبها من ذراعها وقال لها:

«هيا بنا نتمشى على الشاطئ، قبل تناول طعام العشاء.»

لم يعد هناك أي أثر للعاصفة التي داهمت الجزيرة بعد الظهر، وأصبحت صفحة البحر هادئة تماماً، وتحولت الرياح الى نسيم رقيق يداعب الأكتاف كهمسات الحرير، وأخذ طائر وحيد من نوع الفرقاط الذي يلتهم طعام الطيور الاخرى يحلق على ارتفاع شاهق وهو يسبح بجناحيه المائلين في سهولة ويسر، وانحسرت مياه المد بعدما غسلت رمال الشاطئ، التي أكسبتها الشمس الغاربة لوناً ذهبياً ناريا، وأخذ غرانت و روبين يمشيان على الشاطئ الشرقي بدون أن ينبسا ببنت شفة، وأخذ كل منهما يسبقه ظله الذي استطال بفعل الشمس الغاربة.

وبعد قليل أحست روبين بأنفاسها تتقطع لا بسبب الاجهاد وانما بسبب التوتر الناجم عن صمت الرجل الذي يسير الى جوارها، وتذكرت فجأة تلك التلميحات المحيرة التي جاءت في كلام مارك ثورنتون لها بعد ظهر اليوم، وكذلك تذكرت بعض المظاهر الطفيفة التي لمستها خلال الفترة القصيرة التي عرفت فيها آدم غرانت. من المستحيل ألا يتملكها حب الاستطلاع لمعرفة كنه هذا الرجل، وألا تتكهن بمن يكون ومن أي مجتمع جاء ليحيا في تلك الجزيرة النائية. وتذكرت شكل يديه وهما تحملان الطائر المحاكي وهو يقدمه لها لتراه، انهما أجمل من أن تكونا يدي رجل، وليست فيهما أي ملامح للخشونة توحي بأنه يؤدي عملاً يدوياً، انهما في الغالب يدا جراح... وأخذت تسأل نفسها اذا كان غرانت جراحاً ارتكب غلطة؟ قد يكون هذا هو الرد الملائم على تساؤلاتها، رغم

اناث يعملن ويلهين معهم، فأي فرق في هذا؟»

«أنت.»

فقالت له في دهشة:

«أنا! انني لا أفهم.»

«أولاً أنت في رأيي بحاجة الى من يرعاك الى أن تعيدي تنظيم حياتك المرتبكة، وعلى هذا فسوف تمكثين معي الى أن تعود الى انكلترا، وتبقين معي بعد ذلك لبعض الوقت الى أن تتكيفي مع الوضع الجديد بعد فقدانك لأبيك، وفقدانك لذلك النمط من المعيشة التي كنت تحبينه.»

وهز كتفيه قائلاً:

«وما يأتي بعد هذا سوف نواجهه في حينه.»

«ما زلت لا أصدق أنك جاد في هذا، ولكن حتى لو كنت جاداً فالأمر مستحيل، فنحن لا يعرف أحدنا الآخر، ناهيك عن أن...»

«أن يحب كل منا الآخر، أليس كذلك؟»

فردت عليه وهي تحاول الاستخفاف:

«حسناً، انه لأمر جرى عليه العرف قبل أن يفكر المرء في الزواج.»

فقال لها وقد اكتسب صوته بعضاً من الخشونة:

«انني لأدهش أحياناً لأن فترة الثلاثة الأشهر التي أمضيتها هنا في عزلة انفرادية غيرت نظرتي الى الأمور. فأنا الآن أنظر في تشكك الى أساليب المجاملات الزائفة التي يشغل بها الناس أنفسهم. فتقديم الهدايا من الفراء الفاخر والحلي انما يعبر فقط عن الجانب الحسن من شخصية أحد الأفراد، ثم تتضح الحقيقة المريرة بعد فوات الأوان. وانني أعتقد أن شخصين، تتوفر لهما الارادة ويخلص كل منهما للآخر، يمكنهما اقامة حياة مشتركة أكثر مدعاة للرضى، وعلى أساس أكثر رسوخاً من تلك الحياة التي تقوم على الجاذبية البدنية.»

«كلامك واضح، واستنتج منه أنك لا تؤمن بالحب، أو تراك تعرضت لصدمة

شديدة في حياتك؟»

«ألم يحدث هذا لك أنت؟»

ولاذت بالصمت، فقال لها في هدوء:

«هذا الرجل الذي ذكرته، هل كنت مخطوبة له، وهل كنت تحبينه؟»

«لست متأكدة من هذا.»

وترددت وأخذت تنظر الى يديها وهما تتلويان وقالت:

«كنت أعتقد هذا، ولكن عندما تمت الخطوبة، بدأت الأمور كلها تسير في الاتجاه المعاكس، وبدأ يتهرب مني ويتركني وحدي، ولم أكن أدرك أنه متبرم بهذا الارتباط وقال لي انه سيتيح لي الوقت للتدبر والتفكير في الأمر و...»

وتوقفت عن الكلام وهي تحاول ترطيب حلقها الذي جف، ومضت تقول:

«وترك الأمر لشخص آخر لكي يبلغني بالحقيقة، كانت هناك فتاة أخرى في حياته وكان يشاهد معها في كل مكان، وعندئذ رددت اليه خاتم الخطوبة وأبلغته بأنني لا أريد رؤيته مرة أخرى، وفي ذلك الحين قابلت كارلتج، وباقي القصة أنت تعرفه.»

«أتعتقدين أنك كنت ستسعدين معه؟»

فالتوت شفتاها في مرارة وقالت:

«أتقصد اذا كنت تزوجته؟ أتريد حقاً معرفة الاجابة؟»

«في الواقع لا أريد.»

ومال الى الأمام وهو ينظر الى البحر الذي لفه الظلام وسألها:

«قولي لي يا روبين، ما الذي تتطلعين للعودة اليه؟»

«انك لست في حاجة الى الاجابة على هذا السؤال أيضاً.»

«لنفترض أنك تتطلعين في اتجاه آخر.»

«أتقصد العلاقة التجريبية التي اقترحتها منذ قليل؟»

«ولم لا؟ انها ستحل مشكلة؟»

«وتنجم عنها مشكلات أخرى كثيرة.»

وسألها باستغراب:

«انك معجبة بمارك ثورنتون، أليس كذلك؟»

«وما دخل هذا فيما نتحدث عنه؟»

«له دخل بكل شيء، فأنت لا تدركين أنك تتطلعين الى شخصية تحلّ محل أبيك الذي فقدته، ولهذا منحت ثقتك لكارلتغ، والآن سيلبي مارك ثورنتون حاجتك هذه في ترحيب.»

فردت في حرارة:

«هذا شيء مضحك، فأنا لم أفكر في شيء من هذا القبيل.»

«أعلم أنك لم تفكري في هذا، ولكنك اذا مكثت هنا ثلاثة أشهر بدون أي ارتباط فسوف ترتبطين به عاطفياً في القريب العاجل، فهذا أمر لا يمكن تجنبه، ناهيك عما يمكن أن يحدث أيضاً بالنسبة الى ستيفنز و روري تريهيرن.»

«لم أقابل تريهيرن.»

«سوف تقابلينه، وأنت تعرفين ما الذي ينتظرك في نهاية الشهور الثلاثة: قلب محطم بدون ان تجدي مايعوضك سوى الامل في ان تبدأي حياتك من جديد، وانت تحملين على كتفيك حملاً ثقيلاً من مشاعر الرثاء لحالك.»

قالت له في حدة انها سمعت منه أغرب اقتراح على الاطلاق، وبدا عليها أنها لا تريد الاعتراف بالشكوك التي غرسها في نفسها، وبالمخاوف التي أثارها فيها وهو يصوّر لها الواقع الذي لا تريد الاعتراف به، وأضافت قائلة:

«كم هو رقيق منك أن تقول لفتاة انها تعيش الحياة وهي تعطف على نفسها وترثي لحالها.»

فرد عليها في هدوء قائلاً:

«انني عندما أبدي الحنان والمحبة نحوك فانني صادق في مشاعري، وكل منا لا يعرف الكثير عن الآخر، ولكن كلاً منا عرف في الآخر شخصيته الحقيقية وليست

الواجهة الملفقة لشخصيته، ولم تكن هناك أي مناسبة لتقديم الهدايا التي سرعان ما يضيع تأثيرها مثل العطر الرخيص.»

«لم تقل لي الكثير عن حياتك، فلا بد أن شيئاً ما جعلك تدير ظهرك للعالم، هل تلك الفتاة هي وحدها السبب في ذلك؟»

«ليست تلك الفتاة هي السبب الوحيد، وسوف أحكي لك قصتي يوماً ما.»

«ولم لا تحكي الآن؟»

«أريد ردك أولاً، قبل أن يأتي الرد متأثراً بشاعر الشفقة نحوي.»

«أليس هذا ـ أي شعورك بالشفقة نحوي ـ هو الدافع نفسه وراء اقتراحك غير العادي؟»

«كلا، فأنت في عنفوان الشباب وتتمتعين بالجاذبية الشديدة، وما كنت لأطلب منك الزواج مني ان لم تكن لدي رغبة في ذلك.»

فقالت له وقد أعيتها الحيل:

«ولكنك لا تعرفني.»

«وهذا أفضل.»

وتحرك وأخرج علبة سكائره وقال لها:

«ولكننا بهذا النقاش بدأنا ندور من جديد في الحلقة المفرغة نفسها، أمامك قليل من الوقت لتفكري في الأمر، وتفكري أيضاً فيما سوف يعنيه رفضك.»

وعضت شفتها وهي تفتح باباً جديداً للنقاش وتحاول أن تكيّف نفسها مع موقف أفلت من يدها على ما يبدو، وخطر لها فكرة، ثم قالت له وعيناها تشعان ببريق الانتصار:

«اذا افترضنا أنني وافقت، فلن نستطيع الزواج، فليست هناك كنيسة، وليس هناك موثق لعقد الزواج، لا شيء هنا بالمرة.»

«فكرت في هذا الأمر، وأعتقد أن المبدأ، الذي يطبق فوق السفينة يصلح للتطبيق في جزيرة أزينا، فربان السفينة يمكنه أن يبرم عقود الزواج وأن يشرف على

عملية دفن الموتى في البحر، وهنا يعتبر اللفتانت ثورنتون هو حاكم الجزيرة التي تملكها بريطانيا وتعيرها الولايات المتحدة التي تستخدمها في أغراض الأرصاد الجوية، وفي غيبة أية سلطات أخرى مسؤولة فانه يصبح مسؤولاً عن أي معاملات رسمية، بما في ذلك، كما أعتقد في مثل هذه الظروف، اجراء طقوس الزواج.»

«وهذا سيجعلنا نقع غالباً في ورطة قانونية عندما نعود الى إنكلترا.»

«لن أقول رأيي في هذا الشأن، ولكنني مصمم على ألا أدع هذا يقف عقبة في سبيلنا.»

فقالت وقد تملكتها الدهشة:

«انك تبدو شديد الاصرار على الزواج.»

فأخذ يتمتم وكأنما يحدث نفسه وقال:

«نعم، وانه لشيء رائع أن تكون لدى المرء الرغبة في التصدي للعقبات. ومع هذا فهناك شيء آخر أشعر أنه ربما يسبب لك قلقاً دفيناً، رغم أنني غير متأكد من هذا.»

ووقف ووضع القداحة في جيبه وأضاف قائلاً:

«اعلمي أنني أحترم الأنثوية في مسائل الحب والحنان، واذا أنت قررت الزواج مني فسوف تكونين حرة في تحديد مدى التقدم الذي تحققينه في مجال العلاقة البدأية بيننا، وأنت كزوجة لي سوف تحملين أسمي، وتنالين احترامي ورفقتي واخلاصي أيضاً. ولكنني لا أريد مطلقاً انتزاع الحب قسراً بدون رغبة من الطرف الآخر. هل فهمت ما أعنيه؟»

فردت بصوت خفيض:

«نعم.»

«حسناً.»

واقترب منها وأمسك بيدها وجذبها حتى نهضت واقفة، وسارا بخطى بطيئة في

طريق العودة على طول الشاطيء، الذي خيّم فوقه الظلام. ولزم الصمت في طريق العودة مثلما فعل عندما خرجا في البداية، وهو ما لقي ارتياحاً شديداً من روبين. ولأول مرّة منذ ستة أشهر أحست روبين بأن ذهنها أصبح خالياً تماماً من الذكريات الأليمة والمريرة، فالرجل الذي ما زال غريباً عنها تماماً شغل كل فكرها، ونحّى من ذهنها جانباً كل الأشياء والأشخاص، ولم تبذل هي أدنى جهد لتتخلص من هذا الذي يشغل بالها ويقتحم عليها حياتها في تصميم واصرار.

٤ ـ لحظة اسمها: نعم

في تلك الليلة رقدت روبين في فراشها وهي مستيقظة لفترة طويلة، وراحت تحدق من خلال النافذة الى النجوم المتناثرة في السماء، وهي ترتدي البيجاما الحريرية المريحة التي ترطب جسمها في حين أخذت تتنازعها الأفكار، حائرة بين الرفض القاطع لتلك الفكرة الحمقاء التي عرضها عليها غرانت، وبين التفكير الجاد في قبوله زوجاً لها. أية صدمة سيصاب بها ان هي فعلت هذا! ما الذي جعل تلك الفكرة تراودها؟ بالتأكيد ليست الأسباب التي ذكرها هي الدافع الحقيقي وراء ذلك؛ انه يكبرها سناً، ويتسم بالكياسة والتهذيب الرفيع، وهذا خلق لم يكن مجرد ثمرة للتعليم والخبرة والقدرة على اقتناء الملابس الثمينة الراقية. انها لا تستطيع حتى مجرد التفكير في هذا الأمر، لأنه سوف ينطوي على الحماقة. ما قاله آدم عن المظاهر الخادعة صحيح تماماً، وتساءلت عما جعلها لا تدرك هذا من قبل.

وجالت بخاطرها ذكرى خطيبها السابق نيجل الذي لم تعرفه على حقيقته مثلما أدركت الآن. كان في عنفوان الشباب والسحر والمرح، وكل هذه كانت مظاهر سطحية تخفي تحتها حقيقة شخصيته التي تتسم بالأنانية. تخلصت منه قبل أن يجمعهما قفص واحد بعد حوالي عام، مثلما حدث بالنسبة الى أختها جولي التي تزوجت من تيدي... ولكن الأمر يختلف بالنسبة الى آدم غرانت...

وأخيراً بدأ النعاس يداعب جفنيها، فاستغرقت في نوم عميق، ولم تستيقظ الا بعدما ملأت أشعة الشمس السماء. كان الصمت والسكون يخيمان على البيت

الصغير، وأحست بالخوف وهي ترتدي ملابسها وتعد لنفسها طعام الأفطار، ولم تكن تسمع سوى أصوات الطيور، وتملكها شعور بأنها آخر من بقي على الأرض. لا بد أن يكون آدم قد ذهب الى الملاذ الذي تلجأ اليه الطيور، وتساءلت:

كيف استطاع آدم أن يتحمل تلك العزلة؟ وما هي الفترة التي عاشها هنا؟

ولمحت على المائدة علبة القطارات الطبية، فتذكرت الطائر المحاكي... هل ما زال على قيد الحياة؟ وقامت بخلط الحليب بالخبز، وذهبت تتفقد الطائر في كوخه الصغير، فوجدته غادر فراشه المكون من ورق الشجر وأخذ يكتشف المكان من حوله. فاقتربت منه في هدوء لئلا تزعجه وهي تطلق صفيراً. وما أن رأى خليط الحليب والخبز حتى أدرك سبب مجيئها، وأخذ يحمل منقاره الطويل في وعاء الطعام. أبلغها آدم بأن تلك الطيور تتمتع بشهية خارقة، وأصبح واضحاً لها أن ميكي سيصبح طائراً أليفاً قبل مرور أيام قليلة.

ولاحظت أن سيارة الجيب غادرت مكان الانتظار المخصص لها خلف المنزل. لماذا لم يوقظها آدم؟ ولماذا يريد الزواج منها؟ وبدأت تقوم بترتيب المنزل، وتملكها الملل وتمنت أن يعود آدم قبل أن يحدث شيء ما.

وعندما حان وقت الغداء وطالت غيبته بدأت تنزعج وينتابها شعور بالقلق الشديد الا أنها راحت تلتمس له الأعذار. ولكن هل طالت فعلاً فترة تأخره؟ لم يكن أمامها من سبيل لأن تعرف برنامجه لهذا اليوم... وأحست بالجوع الشديد ولكنها امتنعت عن تناول الطعام، واكتفت باعداد فنجان من الشاي تناولته مع قطع من البسكويت. وخرجت للقيام بجولة، وقررت السير إلى محطة الرصد الجوي، وعندما وصلت الى النقطة التي ينحني عندها الممر خلال الغابة، غيرت رأيها وقررت العودة الى الشاطىء، ولكن عليها أن تعود الى البيت لاحضار منشفة الاستحمام، وربما يكون آدم نفسه قد رجع الى البيت. وتملكتها الحيرة والتردد وهي تتذكر أن عليها أيضاً إطعام ميكي.

وعادت الى الشاطىء لتسبح، فهي تجيد السباحة ولا تخشى البحر. ثم خرجت

من الماء وجففت جسمها وفرشت المنشفة فوق الرمال وتمددت فوقها تاركة الشمس تكمل تجفيف بدنها. وغلبها النعاس فنامت لتعويض فترة النوم التي فقدتها الليلة الماضية. ولم تعرف كم من الوقت مضى عليها وهي نائمة، ثم استيقظت فجأة عندما أحست بظل يحجب عنها أشعة الشمس فتحركت لتجد نفسها وجهاً لوجه أمام آدم. تهللت أساريرها ولم تستطع أن تخفي سعادتها وهو يمد يديه اليها لتمسك بهما وتنهض وهي تصيح قائلة:

«أين كنت؟ تملكتني الحيرة والتساؤلات... هل تناولت طعام الغذاء... انتظرت لفترة طويلة ثم...»

فابتسم قليلاً ثم قال:

«أخذت معي بعض الطعام، هل كنت قلقة علي؟»

«طبعاً كنت قلقة! لماذا لم تخبرني؟»

«لأنك كنت مستغرقة في النوم هذا الصباح.»

ورمقها بنظرة حادة وأضاف قوله:

«أعتقد أنني حصلت على الاجابة بالنسبة الى اقتراحي.»

وفغرت فاها، وقد تاهت منها الكلمات التي كانت ستتفوه بها وأحست بأنها أسيرة لعينيه اللتين ترمقانها.

وأدركت فجأة، والدفء الشديد يسري في جسمها، أنه يمسك بيديها كما لاحظت ازدياد سرعة تنفسه. وجذبت يديها من بين يديه،وانحنت لتحمل ملابسها وقد تملكها الاضطراب الشديد. ولاحظت بعدما ارتدت ملابسها أنه ما زال واقفاً مكانه بلا حراك، يبتسم، وأدركت وهي مستاءة أنه يعرف سبب الارتباك التي تعانيه وسألها:

«هل أنا أسبب لك حقاً كل هذا الشعور بالخجل؟»

«حالياً، نعم.»

«كلامك ينمّ عن الصدق، وانني لأتساءل اذا كانت النساء يدركن كم هن

مراوغات في تعاملهن مع الرجال.»

«لا أفهم قصدك.»

«هل تنكرين أن النساء يقمن باختيار ملابسهن بصورة تجعلهن أكثر جاذبية في عيون الرجال، وخاصة اختيارهن لملابس السباحة.»

فصمتت لحظة ثم بدا على وجهها الاحساس بالخزي وقالت له:

«ان كنت تظن أنني... هل تحاول أن تمزح؟ في أي حال ان مزاحك لم يدخل السرور الى نفسي.»

وقامت بطي المنشفة وسارعت بانتعال حذائها وأضافت قائلة:

«تعلم انه ليست عندي اي ملابس تقريباً، ولو كان عندي ما يلائم السباحة لارتديته بدلاً من أن أضطر الى...»

وتوقفت عن الكلام وهي تنحي وجهها جانباً وتغالب دموعها في حين أخذ آدم يعتذر ويقول لها انه كان يبدي اعجابه بلباس البحر الجذاب الذي ترتديه وبلون الزهور البرتقالية والخضراء والفراشات التي تزينه. وأضاف قوله:

«أؤكد لك أنني لم أقصد بالمرة اطلاق الدعابات على حساب مشاعرك، وما زلت مصراً أن لباس البحر الذي ترتديه جذاب وجميل.»

فردت عليه قائلة:

«ولكنني لا أعتبره كذلك.»

وانطلقت في طريق العودة الى البيت تاركة اياه على الشاطىء، أو يعود كيفما تراءى له. وأخذت تتساءل عما كان يعنيه، وهل كان يظن أنها تعمدت اغواءه. لا بد أن تزيل من ذهنه هذه الفكرة الخاطئة وكلما أسرعت في ذلك كلما كان أفضل.

ولحق بها في اللحظة نفسها حين وصلت الى البيت، ودخلت وأعدت ملابسها وذهبت الى الحمام لتستحم وتزيل الآثار المتبقية من الملح والرمال الناعمة، لكنها وجدت الدش لا ينزل منه الماء، فنادت على آدم الذي ذهب لتشغيل مضخة الماء بعدما قال انه سيترك لها أمام الباب علبة السكائر لتقطع الوقت في التدخين

ريثما يمتلىء الخزان بالماء. وعندما أحسّت بخطواته تبتعد فتحت الباب قليلاً ووجدت علبة السكائر والقداحة فوق كرسي، فأخذتهما وبدأت تدخن، ولاحظت أن القداحة محفور عليها حرف ف وليس حرف الألف أو الفين أول حرفين لاسم آدم غرانت. ربما يكون الحرف الأول لاسم أبيه أو أخيه. ترى ما هي الأسماء التي تبدأ بحرف «ف»؟ فيكتور، فرنون، فنسنت، فلاديمير، فالانتين، وبدأ الماء ينهمر فوقها من الدش وبعد لحظة سمعت صوت آدم يقول لها:

«ستحتاجين الى شيء آخر للاستحمام.»

وفتح الباب قليلاً ومد يده ليقدم لها منشفة نظيفة كبيرة، فشكرته وهي تقول له ان المنشفة التي معها اتسخت بالرمال. فقال لها انه يرى ضرورة شراء غسالة أو شراء مزيد من مناشف الاستحمام. وأحسّت بصوته يخفت تدريجياً مع ابتعاد خطواته.

وفي المساء وبعد تناول طعام العشاء، كانت في روح معنوية أفضل وهي تدخن السكائر الفاخرة وتحتسي القهوة، وكان آدم يبدو مشغولاً بعمله، وأدركت أنها ربما تكون قد تسرعت في حكمها، أو أنها حساسة أكثر من اللازم.

وذهب آدم الى الرحلة الصغيرة، وأحضر خزانة ملابس كبيرة تستخدم في السفر ولاحظت أنها تحمل عدداً كبيراً من بطاقات العواصم الأوروبية الكبرى. وقال لها وهو يفتح الخزانة انه ممتاز في قدرته على ربط الأشياء وتغليفها ولكنه لا يستطيع أن يجاري أمه في هذا المجال.

وأخرج قميصاً حريرياً لونه برتقالي داكن، ورفعه لحظة ثم وضعه على مسند كرسي وهو يقول:

«وضعت أمي كل ملابسي في هذه الخزانة حتى تكون بمأمن من نسيان أي شيء.»

وأمسك بقميص آخر من الحرير السميك الناعم، ولكنه أكبر حجماً ولونه أخضر وتساءل:

«هل سبق لي ارتداء هذا القميص؟»

«أنت أدرى بهذا.»

وأخذ يمر ببصره على جسمها من قمة رأسها الى أخمص قدميها، وقال لها انه ليس خبيراً في مقاييس المرأة، ولكنه لا يعتقد أن مقاييسه تناسبها، وسألها اذا كانت تستطيع صناعة الملابس. فقالت له انها تستطيع ذلك بشرط أن يقوم أحد ما بادخال الخيط في ثقب الابرة التي ستستخدمها. فرد عليها بقوله:

«عليك الآن أن تتعلمي القيام بهذه المهمة بنفسك.»

ونهض وهو يشير بعدم اكتراث الى خزانة الملابس وأضاف قوله:

«اختاري ما تشائين، واعملي المقص فيه.»

ولم تعجبها النظرة التي رمقها بها كأنه يظنها غبية.

فقالت له:

«أتعني...»

«أعني أن لدي ملابس تزيد كثيراً عن حاجتي لسنة كاملة...»

وهز كتفيه وأضاف قوله:

«وان وجدت ما يفيد فاختاري منه ما تشائين.»

فقالت في تردد:

«ولكنني لا أستطيع... انه لكرم منك، ولكن...»

ومرت لحظة من الصمت ثم استدار ليتركها وهو يقول في ضيق:

«نعم، أعتقد أنها كانت فكرة سخيفة، ولا أظن أن هذه الخزانة فيها شيء ذو قيمة.»

«كلا...»

تملكها شعور مفاجيء بالحنو والمحبة، واتجهت نحوه ومست ذراعه بانفعال وقالت له:

«ليس الأمر كما تظن، ولكن لا يمكنني قص تلك الملابس الجميلة والثمينة انها ستكون جريمة.»

«كلام فارغ، انها لا تلائمني، ولكنها قد تحل لك مشكلة نقص ملابسك.»

وابتسم ثم أضاف قائلاً بحماس:

«لن يكون مظهرك غير عادي، وأنا أعلم أن المرأة على استعداد لاستعارة أي ملابس يرتديها الرجل، اذا كان هذا يزيد من جاذبيتها».

«انك تغريني بشدة لأفعل هذا».

«افعليه اذاً».

ورفع القميص الحريري الناعم وقاسه عليها، وقال لها انها اذا قصرت الكمين، سيصبح ملائماً لمقاسها. وراحت تنظر الى طول القميص وأحست بلمسات يديه فوق كتفيها تحدث ارتعاشات غريبة ومقلقة، ولكنها افتقدتها عندما تحرك آدم وانقطع التلامس الذي استغرق برهة قصيرة. وصاح آدم:

«يا إلهي، وضعت أمي هذا أيضاً في الخزانة».

وأخرج سترة مخصصة للتدخين في المساء، فأخذتها روبين ولبستها ووقفت في وضع مسرحي مفتعل وسألته عن القبعة التي تلبس مع تلك السترة فقال لها وقد بدا الحزن في عينيه انه ليست هناك أية قبعة وانما يمكن استخدام الغليون، فقالت له وهي تضحك:

«السيكار سيكون أفضل، وسوف أشعر عندئذ بأنني اشبه بجورج صاند الروائية الفرنسية التي برعت بتصوير حياة الريف».

فلمعت عيناه وسألها في حدة:

«لماذا تقولين هذا؟»

«لماذا؟ لا شيء، سوى انها كانت ترتدي ملابس الرجال، مثل هذه الملابس، وتدخن السيكار، وهزت باريس في القرن التاسع عشر حينما كانت واحدة من الرواد المحدثين في الدوائر الفنية في ذلك العصر. كانت على درجة كبيرة من الشجاعة مكنتها في تلك الأيام من تأكيد استقلالها كامرأة ذات فكر متحرر، ألم تكن صديقة للموسيقار العالمي فردريك شوبان؟»

فرد عليها آدم في تجهم:

«نعم، وتسببت في تقصير السنوات القليلة الأخيرة والثمينة من حياته وجعلته يلهث وراءها عبر أوروبا في قارب مليء بشحنة من الحيوانات، ثم يقيم في دير رطب ليس فيه أي خدم أو وسائل للراحة في جزيرة مايوركا الاسبانية».

«ولكن هل كانت تحبه؟»

فرد عليها بعنف قائلاً:

«أتسألين عن الحب؟ حطمته مثلما حطمت ألفريد دي موسيه، ابرز رواد الرومانسية. والله يعلم كم من الشعراء والفنانين الآخرين راق لها أن ترغمهم! ولن يتاح لأحد أن يعرف كيف كانت ستسير حياة شوبان لو لم يكن واقعاً تحت تأثيرها. انه الرجل العظيم الذي وضع أسس لوحة المفاتيح في البيانو بالشكل الذي نعرفه اليوم».

ودهشت روبين بسبب رد الفعل الحاد الذي صدر منه لدى ذكرها لاسم جورج صاند، تلك الروائية التي استعارت اسم رجل وارتدت ملابس الرجال حتى يعترف بها المجتمع الذي كان يتنكر المواهب الفنية للمرأة ويتجاهلها وسألته ببطء:

«هل كان شوبان أعظم الموسيقيين في عصره؟ وما رأيك في بيست؟»

«انه موسيقي استعراضي، وموسيقاه مثل الألعاب النارية البراقة المتلألئة، ولكنها تفتقر الى العمق».

وأحس بأنه استرسل وأطال الحديث في هذا الموضوع فسألها قائلاً:

«لماذا لم تمنعيني من الاسترسال في هذا؟»

«ليست لدي معلومات كافية في هذا الموضوع تتيح لي مناقشتك.. يبدو في وضوح أنك من عشاق الموسيقى».

«نعم».

قالها بطريقة أنهى معها الكلام في هذا الموضوع، ثم نظر الى خزانة الملابس وقال لها:

«سأنقل هذه الخزانة الى غرفتك لتنتقي منها ما تشائين.»

ولفتت نظرها كلمة غرفتك وراحت تسائل نفسها: منذ متى بدأ يتطرق الى نفسه هذا الاحساس الغريب نحوها بالانتماء والقبول والود؟ ومرّ يومان لم تشهد مثلهما من قبل في حياتها رغم أنهما مرّا مروراً سريعاً. تملكها شعور غريب بأن روبينا واربن ـ وهو اسمها الأصلي ـ لم يعد لها وجود، أو هي بدأت في التلاشي من الوجود ذات صباح كئيب لا تستطيع نسيانه، منذ ستة شهور، ثم انقطع آخر خيط يربطها بالوجود عندما تسللت فيها من اليخت وقفزت الى البحر وسط الظلام.

واليوم بدت لها ذكرياتها غير مترابطة، ووقفت المشاهد الجديدة التي مرت بحياتها عاجزة عن الاندماج في تلك الذكريات، وأخذت تتزاحم عند حافة الشعورلديها، وأقوى تلك المشاهد تمثل في التعبير الذي ارتسم على وجه آدم غرانت عندما فجرت اشارة غير مقصودة كل تلك العواطف الجياشة لديه. فما هو الذي فجر ذكريات الماضي لديه؟ وما الذي جعلها تشعر غريزياً بأن هناك شيئاً ما يثير الأحزان في نفسه اذا استرجع ذكراه، وهو الشيء الذي لا يريد التحدث عنه؟

هل هو من عشاق الفنون؟ معلوماته الموسيقية تشير الى هذا، الا أن مظهره العام يتسم بالخشونة، فهو مفتول العضلات ومكتمل الرجولة...

وبدأت تخرج الملابس من الخزانة في بطء. ان الطريقة التي صنعت بها تلك الملابس خالية من الأخطاء، الأمر الذي يزيد من الغموض المحيط بشخصية آدم غرانت. وبعض هذه الملابس يوحي بالانتماء الى عالم رجال الأعمال، في حين يوحي البعض الآخر بأن صاحب تلك الملابس هو ممن يركنون الى الدعة والتكاسل وان كانوا يتميزون بالأناقة. ولكن الشيء الذي يجمع بين كل تلك الملابس هو أنها ذات طابع رجالي وأنها غالية الثمن.

وعلقت بعضها في العلاقات القليلة الموجودة، بينما بدأت تنتقي ما يلائم مقاسها،

وأمسكت بالقميص الحريري الأخضر، وخلعت ملابسها وراحت تختبر مقاسه بالنسبة اليها. المرآة صغيرة جداً لا تمكنها من التعرف الى مدى ملاءمة القميص وأدركت أن مقاسه كبير نظراً لأن آدم غرانت عريض المنكبين، في حين أن المسافة بين كتفيها قصيرة. وانتقت بعض الملابس التي تتفق مع مقاسها، وأجرت بعض التعديلات فيها لتتلاءم مع جسمها وذوقها.

وفجأة ملأها الزهو وأحست بالرغبة في استعراض نفسها، وأخذت تنادي آدم وهي تقول:

«آدم، انظر!»

ولكن أحداً لم يرد عليها. وأخذت تنظر الى الطريق المؤدية الى الشاطىء، لعلها تراه، وراحت تناديه ولكنها لم تسمع سوى حفيف أوراق الشجر. وخرجت تدور حول البيت وهي تناديه ولكن بدون جدوى. ثم لمحته يقف مستنداً الى مقدمة سيارته الجيب وظهره ناحيتها، فتقدمت منه ولمسته بيدها في رقة وقالت له:

«آدم، ماذا جرى؟»

فاستدار نحوها فجأة، مما جعلها تتراجع خطوة الى الوراء، ونظرت الى وجهه فرأته شارد البال وكأن عينيه لا تريانها واستطاعت عندئذ أن تحس بالمأساة التي يعيشها وتمزق قلبه. ثم أفاق من شروده وتنبه الى وجودها، وارتسمت على شفتيه ابتسامة عذبة جعلت روبين ترثي لحاله. ولاحظ أنها ترتدي أحد قمصانه، فطلب منها أن تأتي الى حيث الضوء حتى يستطيع أن يراها جيداً. فترددت، وتلاشى ذلك الاحساس بالزهو الذي جعلها منذ قليل تخرج للبحث عنه. ونظرت اليه قائلة:

«آدم، ماذا هناك؟ انك تبدو شديد...»

وهزت رأسها وهي ترمقه بنظرة قلقة وقالت له:

«ألا تخبرني بما حدث؟»

فزم شفتيه وقال لها:

«هل هناك ضرورة لايلامك؟ أنا واثق أنك تعلمين تماماً ما الذي تحدثه اللحظات التعسة في حياة الانسان عندما تقع...»

وساد الصمت بينهما وهو ينظر الى ملامحها الممتقعة والقلقة.

وسرت رعدة في شفتيها، وأحنت رأسها وتحسست الحزام الذي يطوق خصرها بأصابعها المضطربة، وأخذت شهقة عميقة كأنها تتنهد ونظرت الى الغابة الكثيفة خلف كتفي آدم، وهمست قائلة له:

«آدم، هل كنت تعني ما قلته ليلة أمس عن، عندما سألتني...»

«أعني تماماً كل كلمة قلتها.»

«حسناً، ان كنت ما زلت ترغب في هذا... فأنا ايضاً أرغب فيه... ان كنت تعتقد أنه سيحل المشكلة و...»

وفي هدوء مد ذراعيه، وفي لحظة كانت في أحضانه تستشعر دقات قلبه ودفء ذراعيه، ولم يحاول أي منهما تقبيل الآخر، وكان عناقاً مجرداً من أي رغبة بين شخصين لا يتطلع أي منهما الى الحب، وانما الى ملاذ يلجأ اليه.

٥ ـ الزواج الغريب

بعد مضي خمسة أيام قام ثورنتون، بوصفه الشخص المسؤول عن تسيير الأمور في الجزيرة، بابرام عقد زواج آدم و روبين في قاعة تمّ اعدادها بصفة مؤقتة في مبنى محطة الرصد. وكانت الأيام الخمسة التي سبقت الزواج هي أشد الأيام غرابة وتأثيراً في حياة روبين، تكشفت فيها الأعماق الدفينة وغير المتوقعة لمشاعر العطف الانسانية. ومنذ البداية أثارت فكرة اقامة حفل زواج في أثزينا خيال كل فرد في الجزيرة، وذلك منذ ان بدأ ثورنتون ينقب فيما لديه من مراجع للتعرف على الاجراء السليم الذي يتبع في مثل تلك الحالة النادرة، حتى وضع آدم الخاتم في أصبع روبين. ورغم أنه لم يتبع في حفل الزواج التقليد المعروف الذي يقضي بأن ترتدي العروس شيئاً جديداً وشيئاً قديماً، الا أن هذا الحفل أصبحت له منزلة خاصة لا تمحى من ذاكرة روبين، بغض النظر عما قد يحدث في المستقبل.

وكانت المشكلات التي طرأت تبدو مستعصية، الا أنه تمّ حلها بمعجزة. والمشكلة التي كانت تبدو وكأن حلها ضرب من المستحيل هي مشكلة ملابسها، بل لقد بكت وهي لا تعرف حلاً لمشكلة الحذاء، خاصة وقد بلي الخف الذي تلبسه وفقد لمعانه ولونه الأبيض. ولم يكن لديها خاتم زواج، أو فستان، ولم يبد أن هناك بصيصاً من أمل الحصول على شيء من هذه الأشياء الضرورية أو تلك التي، وان تكن غير ضرورية، غير أنها مرغوب فيها في حفلات الزواج. وعندئذ بدأ أهل الجزيرة يتكاتفون، وأخذ كل منهم يقدم كل ما عنده من قدرة إبداعية، حتى

أمكن التغلب على هذا التحدي. وتمكن أفراد طاقم محطة الرصد، بعد ست تجارب، من صنع خف رقيق ومناسب لمقاس قدمي روبين، وقد غطي الخف بقماش من الحرير الأبيض أخذ من قميص أحد أفراد الطاقم أما هودريك وولف، الذي يميل عادة الى العزلة ولا يبدي اهتماماً أو عطفاً نحو أحد، فتبرع بخاتم ذهبي، وطلب من أصغر أفراد طاقم المحطة، الذي يتميز بموهبة دقيقة في أعمال النقش، أن يعده ليصبح خاتم زواج روبين.

وتولى هوارد صنع كعكة العرس، وتعاون الجميع في جمع الزهور ونباتات الزينة لتجميل الغرفة، وجاءت المفاجأة الأخيرة من الرجل الذي يعيش على الشاطىء.

رآه روبين مرات عدة على الشاطىء، وهو يصلح قاربه، وكان في البداية يتجاهل ابتسامتها، ثم أخذ يرد عليها بإيماءة، وبعد ذلك كان يرد على التحية بمثلها. وهو لم يكن ذا مظهر همجي مثلما كانت تظن، وتبين لها أن الصورة الذهنية التي انطبعت له في خيالها وهو بشعر أشعث ولحية غير مهذبة، هي أبعد ما تكون عن الحقيقة.

كان غيفون كمبر مديد القامة، نظيف المظهر حليق الذقن، رغم أنه كان يرتدي ملابس بالية لا تساير الأزياء الحديثة، وكشفت قسمات وجهه النحيلة التي تكسوها الكآبة، وعيناه السوداوان الغائرتان عن شخص خانه الحظ في حياته. ولكنه علم بالحدث الذي سيقع هذا الأسبوع وقدم مساهمته في صباح اليوم السابق. وكانت عبارة عن مزهرية جميلة توضع وسط المائدة وهي تحفة جميلة أخذت شكل الزهور ونباتات الزينة،ولكنها شكلت كلها من مئات من محار البحر التي تم صقلها لتحتفظ على الدوام بألوانها الطبيعية.

وخلال تلك الأيام كانت روبين يكاد يغلبها البكاء الذي كان يتحول عادة الى ضحكات وهي تتذكر مدى النجاح الذي حققه حفل زواجها، وبالتأكيد انها لا بدّ أن تكون العروس الوحيدة التي ارتدت زياً واقياً من عقص البعوض.

وتمّ العثور على هذا النسيج بمحض الصدفة فوق رفوف المخزن الموجود في محطة الرصد، ولا أحد يذكر ما الذي جاء بهذا النسيج الذي لا حاجة لأحد به الى محطة الرصد. أعطاه لها أفراد طاقم المحطة لتصنع منه ستائر للنوافذ، الا أن آدم أوحى الى روبين بأن تصنع منه رداء العرس.

كل هذا مرّ بخاطرها وهي جالسة في حفل العرس وسط الضحكات التي تتعالى من حولها، في حين أخذ هوارد يوزع قطع الكعكة اللذيذة التي صنعها على المدعوين. وبدت على وجه روبين مسحة من الحزن وهي ترفع كأسها رداً على تحية آدم. وسألها آدم اذا كانت تفتقد الشراب والخمار الذي ترتديه العروس، فقالت له وهي تغض من بصرها:

«طبعاً لا، وفي أي حال فان الحفل له طابع مختلف، أليس كذلك؟»

«أهو حقاً كذلك؟ ان هذا يتوقف على ما تقصدينه من معنى بعبارة الطابع المختلف.»

قالها آدم بجفاف مما جعل روبين تقلع عن المضي في تلك المناقشة. الأيام الخمس السابقة مرت بسرعة، وكان لدى روبين عمل كثير خلال تلك الأيام، معظمه تركز في حياكة الملابس واصلاحها، وهي ذات خبرة ضئيلة بهذه العملية، خاصة أن الملابس كلها مخصصة للرجال وفي النهاية تملكها احساس عاطفي غريب وهي تشعر بأنها ترتدي ملابس كانت من قبل تخص آدم غرانت، وأخذت تتساءل بينها وبين نفسها ما عسى أن يكون احساس آدم وهو يراها ترتدي تلك الملابس وذلك اذا كان يعير هذا الأمر أي أهمية. وهذا الاحساس جعل من الصعب عليها أن تدرك الى أي مدى يعد غرانت شخصاً غريباً بالنسبة اليها من عدة نواح.

وفجأة قال لها آدم:

«ليس هناك داع للقلق بالنسبة الى المظهر الذي تبدين به. ولن يعرف أحد أنك صنعت هذا الزي من نسيج الستائر الواقية من البعوض، ما لم تبلغيه أنت

بذلك. وسألته اذا كان زيها يبدو مناسباً من حيث الشكل والطول، فرد عليها بأنه يشبه أزياء العصر الفيكتوري، ولم تكن تعرف ما اذا كانت أزياء العصر الفيكتوري تناسبها، وعاودها الشك في أن يكون زيها كئيباً وفضفاضاً مثل الملابس التي ترتديها ربة البيت في المنزل. فقال لها آدم:

«سوف يهدأ بالك، في أي حال، عندما ترين الصور الفوتوغرافية غداً.»

«حقاً، لدينا الكثير من الأفلام الفوتوغرافية.»

«لا بد أن أقوم بعملية تقطيع لهذا الفيلم لكي أفصل العروس عن الطيور.»

فاقترب منها توني ستيلتز قائلاً:

«حقاً، طيورك الأخرى، مسكينة.»

وقال مارك في تهكم:

«من الأفضل ألا يحتوي هذا الفيلم الا على صور الطيور الأخرى، والا فانك ستضطر الى الادلاء ببعض التفسيرات، فقد انضممت الآن الى سلالة المتزوجين كما تعرف.»

ووجه هودريك ولف حديثه اليها قائلاً:

«هل ستسمحين لعريسك بأن يتعرض لعملية غسل دماغ. المرأة الشابة عندما تترسم خطى زوجها وتتبعه في مثل تلك المنطقة النائية من العالم المجردة من كل ما تتمناه الأنثى، وما ترجوه من متعة وراحة، انما تسير وراء ما قدر لها من مصير.»

وابتسم في سخرية وهو يضيف قوله:

«هذا يغريني باعادة النظر في رأيي بالنسبة الى الجنس النسائي المعاصر.»

وأدت كلماته العميقة النبرات الى اشاعة السكون، وتوقفت الضحكات، ثم سأله توني:

«وما رأيك يا وولف في الجنس النسائي؟»

فمسح الفيلسوف الشهير طرف لحيته وقال له:

«كان يجب ايها الشاب الصغير ان تدرك ان هذا ليس بالوقت المناسب لالقاء مثل هذا السؤال.»

واتجه وولف نحو روبين وقال لها:

«أدين لك باعتذار، وهذه هي أول فرصة تتاح لي لأطلب منك الصفح عن سوء تصرفاتنا التي لا تغتفر.»

فحدقت روبين فيه في دهشة، ثم تذكرت ما حدث الأسبوع السابق، ورفعت يدها باحتجاج ولكنه هز رأسه قائلاً:

«أود أن أشرح لك الموقف، كنت أقضي فترة راحة أثناء العاصفة التي حدثت بعد ظهر ذلك اليوم، وقبل فترة طويلة من استقراري هنا في ألزيتا ظل والدو ينفذ تعلياتي اليه بعدم ازعاجي أثناء فترة راحتي، فأنا أعاني من مرض في القلب، ولكنه ليس على درجة كبيرة من الخطورة، وظل والدو على اخلاصه وتكريس نفسه لخدمتي، وبمضي السنين أصبح متعصباً بعض الشيء، كنت على وشك الاستيقاظ عند وصولك الى الفيلا، وكنت أتابع سيرك في الطريق الشاق من الشاطىء الى هذا المكان، ولكن ادراكي لمسار الأمور معك جاء متأخراً، حيث قام صديقنا الشاب الذي يعمل في محطة الرصد بانقاذك، ولولا ذلك كنت دعوتك للاحتماء بالفيلا الى أن تنتهي العاصفة.»

فردت عليه بأدب وهي تنتقي الكلمات:

«كل شيء على ما يرام، وقد فهمت كل ما قلته تماماً.»

«وهل تغفرين لنا خطأنا؟»

«طبعاً، نسيت ما حدث، وكنت كريماً جداً معي والكل كانوا كرماء، أما أنت..»

ونظرت الى الخاتم في يدها اليسرى، ثم الى ملامح هودريك وولف المهذبة وقالت له:

«شكراً.»

فأطرق برأسه وقال لها:

«ما فعلته هو مبعث سرور لي. لا داعي لذكره. لكنني امل في اصلاح الخطأ الذي ارتكبناه، وسأكون سعيداً جداً اذا منحتني أنت وزوجك شرف تناول العشاء معي في القريب العاجل.»

ولاحظ أنها راحت ترمق زوجها في تردد في حين كان آدم مشغولاً بالحديث مع شيفون كمير وقال لها انها لا يمكنهما أن يعيشا في عزلة طوال فترة بقائهما في الجزيرة، كما أن آدم أصبح أقرب الى الناسك. وهذا ليس بالشيء المقبول بالنسبة الى الرجل. ولم تستطع أن تقنع نفسها من أن تقول له بلهجة لطيفة:

«ولكن ألا تشبه أنت الناسك يا سيد وولف؟ أعتقد أنك عشت هنا سنوات طويلة.»

فقال لها بجفاف:

«أنا لست شاباً، وما زالت أمامي سنوات أعاني فيها من متاعب هذا العالم. أما آدم فما زال أمامه العمر المديد، ويجب ألا تسمحي باستمرار هذا الميل للاعتزال عن الحياة.»

ولاحظ تعبيرات وجهها وابتسم قائلاً:

«أليس هذا هو ما جئت الى هنا من أجله، وما جعلك تغيرين فجأة كل خططك التي لا بد أن تكوني أعددتها لحفل الزواج ولقضاء شهر العسل في احدى تلك المناطق المثالية التي يختارها المرء عادة في هذه المناسبة.»

فنظرت اليه روبين في يأس، وهي تتطلع الى من يساعدها في الخروج من هذا الموقف الصعب. فكيف تستطيع أن تقول لتلك الشخصية المسيطرة انها تعرف أن آدم يتطلع لنسيان شيء ما والفرار منه، أو لاغلاق الباب على وقائع من الماضي تتسم بالمرارة، الا أنها لا تدري بالمرة سبب تلك المرارة. وكيف لها أن تعترف بأنها هي الأخرى قد فرت من شيء ما، وأنها تتطلع لاغلاق الباب على حياة لم تكن تحتمل.

وقال هودريك وولف في بطء:

«ألم يعد يعزف الموسيقى الآن، أليس كذلك؟ أشعر بأن هذا أمر يؤسف له أي أسف. المرء يجد في الموسيقى قدراً هائلاً من العزاء والسلوان. فهي أكثر من أي وسيلة أخرى لها القدرة على إنعاش الروح وإمتاع القلب وتهدئته.»

وتنهد ثم أضاف قوله:

«عندما حضر آدم الى الجزيرة لأول مرة وتعرفت عليه، أبلغته أن البيانو الخاص بي تحت تصرفه في أي وقت يشاء، ولكنه حتى الآن لم يبذل أي محاولة لاستخدام البيانو، برغم أن هذا هو أفضل مكان يستطيع أن يخلو فيه الى نفسه ليبدأ في خوض أول الطريق في تلك التجربة التي تبدو وكأنها حاجز لا يمكن اقتحامه.»

وأطرقت هنيهة حاولت أثناءها أن تجمع الأجزاء المبعثرة لهذا اللغز الذي لا يبدو، كما كان واضحاً، لغزاً بالنسبة الى هودريك وولف. كما حاولت أن تكبت احساسها الطبيعي بالمرارة لأن آدم فضل عدم الافضاء اليها بأسراره، ثم قالت في بطء:

«انه لا يريد التحدث عن أسراره.»

فرد عليها هودريك قائلاً:

«هذا أمر طبيعي، ولكنه لن يظل منعزلاً عن الحياة الى الأبد، أن لديك مفتاحاً لهذه المشكلة وعليك باستخدامه من أجل مصلحة آدم. والآن هل تقبلان الدعوة لزيارتي؟ أعتقد أن الزوجة هي التي تنفرد بالحق في قبوله أو توجيه الدعوات الودية، ولا زوجة سواك في هذه الجزيرة كما تعلمين.»

وابتسمت بصعوبة رغم الأفكار التي تدور كالدوامة في رأسها وقالت له:

«طبعاً سأقبل الدعوة بكل سرور، وأشكرك كل الشكر.»

«هل يناسبكما موعد مساء الخميس؟»

فردت عليه بلهجة رسمية:

«انه مناسب تماماً.»

فضحك، وقالت له روبين أنها بعد أن تتقن أعمال الطهو والتدبير المنزلي ستقيم حفلاً، شرط أن يحضر كل من المدعوين كرسيه معه. فضحك كثيراً، ولم تنس روبين الكلام الذي قاله لها، وأخذت تفكر فيه ملياً، وان كانت قد لزمت الصمت وهي في طريق العودة الى المنزل برفقة آدم الذي لزم الصمت ايضاً الى أن وصلا الى البيت، وقبل أن يوقف السيارة قال لها:

«انك هادئة جداً يا سيدة غرانت.»

ونظر الى الحقيبة الضخمة الموضوعة في مؤخرة سيارة الجيب وأضاف قائلاً:

«حصلت على هدايا كثيرة في حفل الزواج.»

ولكنها لفتت نظره بقولها:

«حصلنا عليها نحن الاثنين يا سيد غرانت.»

وتعاونا سوياً في حمل حقيبة الهدايا الى داخل المنزل، وبعد ذلك استدار آدم تاركاً اياها، فقالت له وفي صوتها نبرة تنم عن الشعور ببعض الاحباط:

«ألن تساعدني في فتح الحقيبة واخراج ما فيها؟»

«وهل تريدين مني فعلاً مساعدتك؟»

«طبعاً، فهي هدايانا معاً.»

«أهي حقاً كذلك؟ لا تخدعي نفسك أو تخدعيني، فأنت التي فزت بهذه الهدايا.»

نهضت واقفة بعدما كانت تجثو على ركبتيها بجوار حقيبة الهدايا، واندفعت أمامه لتدخل غرفة النوم، وقامت بتغيير ملابسها في حركات غاضبة، ثم أعادت تمشيط شعرها بسرعة، وأشعلت سيكارة وبدأت تدخن في توتر، وهي تقول لنفسها انه لو كان هذا هو تفكيره فان حقيبة الهدايا ستظل مكانها كما هي الى يوم القيامة. وأخذت تنظر الى الباب وهي تغالب دموعها... ألا يملك هذا الرجل أي مشاعر أو عواطف؟ كانت تدرك أن هذا الزواج لن يكون عادياً، السماء وحدها تعلم أي دافع غريب يكمن وراء اقتراحه بالزواج منها. انه ليس دافع الحب، فهي لا يمكنها أن تخدع نفسها بهذا الاعتقاد، كما أنه ليس الرغبة في اتخاذ زوجة.

ربما يكون الاحساس بالوحدة هو الدافع؟ أو يكون فعل ذلك بدافع الشهامة والفروسية الوهمية التي ولدها الاحساس بالشفقة عليها بسبب الظروف المحيطة بوجودها في الجزيرة؟ وربما كان السبب الكامن وراء ذلك هو تمسكه الشديد بالتقاليد القديمة.

ولكن ما هي دوافعها هي؟ ما الذي جعلها تستسلم للرغبة البدائية الكامنة في أعماقها بقبول اقتراحه؟ ألأنها لم تكن تعبأ كثيراً بما يحدث لها؟ أم لأنها أرادت الامساك بحبل الأمان الذي يتمثل في ارتباطها بحياته؟ أم أنها فعلت ذلك بدافع من غريزة المرأة التي تحس بأن مهمتها هي أن تسري عن ذلك الرجل، وتدخل السلوان الى نفسه رغم أنه لن يعترف أبداً بأنه محتاج الى هذا؟ أم هل الدافع يتمثل ببساطة في أنه ينتمي الى الجنس الآخر وأن له شخصية جذابة ومسيطرة، وهو يمثل ذلك التحدي الخالد بالنسبة اليها؟

ولكن هناك خطأ أساسي في هذا. فآدم غرانت لم يظهر أدنى دليل يشير الى أنه يمثل فعلاً هذا التحدي.

وصاحت فجأة عندما كانت السيكارة تحرق يدها وهي مستغرقة في التفكير وفي تلك اللحظة قرع آدم الباب، وعندما علم بالأمر تأسف لما بدر منه وقال لها:

«هيا بنا نفتح هدايا زواجنا، شخصياً لم أكن أتوقع أن نتلقى أي هدايا.»

وأخذا يفحصان الهدايا وهما في سعادة الى أن قالت له روبين ان هودريك دعاها لتناول العشاء يوم الخميس المقبل، فتبدل وجهه بصورة أربكتها وقال لها في حدة:

«العشاء؟ وهل قبلت الدعوة؟»

«طبعاً قبلتها، لا يمكنني أن أرفضها.»

«كنت أرجو ألا تفعلي.»

وتلاشت روح الدعابة لديه لتحل محلها تعبيرات باردة مليئة بالعجرفة، مما

جعلها تشعر من جديد بأنه غريب عنها. وتنهدت قائلة:

«ولماذا لا أقبل الدعوة؟ الجزيرة فيها أناس قليلون وعلينا أن نعقد صلة صداقة مع هذه القلة.»

فضم آدم شفتيه وهو متجهم وقال لها:

«لم أحضر الى هنا لاقامة علاقات اجتماعية. أعتقد أن هودريك له أسبابه الخاصة التي دفعته الى هذا. لا تظني أن الأمر هو مجرد شعور بالصداقة من جانبه. مضى وقت طويل منذ أتيحت له فرصة لفرض رعايته واستعراض غروره.»

«لا أعتقد هذا. وما الذي يدفعه الى ذلك؟ قد يكون فيه بعض الغرور ولكن....»

وانتابتها الحيرة. فمن المؤكد أن آدم يبالغ في قوله. فهو يصور هودريك وكأنه لديه هدفاً شخصياً يسعى لتحقيقه، وأنه يحاول دفعه للقيام بعمل ما ضد ارادته. ولكن ما هو هذا العمل؟ ولماذا سبب مثل هذا الغضب لآدم؟ وأخيراً توصلت الى قرار. فربما كان هناك أمر ما يهم هودريك، بل من المؤكد أن هناك أمراً ما. وكيف يمكنها ان هي لم تعرف الحقيقة أن تخفف شيئاً من شؤونها الخاصة. فلماذا يخفي آدم عنها أسراره؟ وفوق كل شيء، انها الآن زوجته...

وتادته، وانتظرت حتى تحرك وأصبح في مواجهتها وقالت له:

«ألم يحن الوقت بعد لتتحدث الي؟»

«أتقصدين أن هودريك لم يحك لك؟»

«لم يبلغني هودريك بأي شيء، وتلك هي المشكلة...»

وصاحت قائلة:

«لم يبلغني أحد بشيء، انهم يفترضون أنني أعرف، ويتحدثون بأشياء تصبح ذات معنى عندما ترتبط بما لا أعرفه. وكيف يمكنني المضي في التظاهر بمعرفة ما يتحدثون عنه وأجعلك تنظر الي وكأنني ارتكبت أكبر زلة في حياتي؟ كلامهم كله يدور حول امتناعك عن العزف، وأن هذا أمر يؤسف له و... و... آدم... لماذا

أشعر بأنني أعرفك؟ وأشعر برغم هذا بأنني يجب أن أعرفك؟ لا يمكن أن أكون قد قابلتك من قبل ونسيت. لماذا لا تحكي لي؟»

ونظر اليها لحظة طويلة وهي تحدق فيه بنظرات مليئة بالعاطفة المشبوبة، وقال لها:

«السبب في هذا أنني لم أعد أتحمل مزيداً من مشاعر العطف والشفقة، وعندما أدركت أنك لم تعرفيني فضلت عدم ابلاغك حتى أوفر على نفسي عناء ومشقة الشرح والتفسير من جديد.»

ونظر اليها وأضاف قوله:

«أنا آدم فاند»

«فاند عازف البيانو!»

ومرت لحظات كأنها الدهر، وتنهدت روبين تنهيدة طويلة، وانعقد لسانها في البداية وهي تعجب لأنها لم تتعرف عليه. هل كانت عمياء الى درجة أنها لم تتعرف الى الرجل الذي استطاع في ثلاث مناسبات، كما تذكر الآن، أن يستحوذ على اهتمامها هي وعشرة الآف آخرين لليلة كاملة. آدم فاند هو واحد من أعظم عازفي البيانو في العالم، ويعتبره البعض واحداً من أبرع الموسيقيين في هذا القرن الذين ساروا على درب شوبان.

وبدأت روبين تتذكر ما حدث قبل شهر واحد من وفاة أبيها. كان أبوها من هواة حضور الحفلات الموسيقية وحاول أن يغرس حب الموسيقى في ابنتيه منذ طفولتهما المبكرة. وهي تتذكر الآن، كأن هذا قد وقع بالأمس، أن والدها صاح ذات مساء وهو يقرأ العنوان الرئيسي في الجريدة. وقع حادث لسيارة آدم فاند وهو عائد من حفل موسيقى في ادنبره، وبمعجزة لم تلحق به اصابات خطيرة، الا أن الأطباء يخشون أن تؤدي التمزقات التي لحقت بيده اليمنى الى تهديد مستقبله الموسيقي. وبعد مضي أسبوع نشر بيان مؤداه أن آدم فاند لن يعزف مرة أخرى للجمهور، وأنه سيرحل الى جهة غير معلومة لقضاء فترة نقاهة... كانت

خطيبته هي التي قادت السيارة... وكان اسمها... هل كان الاسم هو ستيلا؟ وتأجل الزواج... وعقب أبوها على هذا الحادث بقوله:

«كم هو مفزع»

ووافقته هي على رأيه، ثم نسيت تلك الفاجعة التي لم تمس حياتها شخصياً، والآن أصبحت زوجة آدم فاندا

وعادت معالم الغرفة الهادئة تتضح من جديد أمام عينيها بعدما عاشت مع ذكرياتها لبعض الوقت، وبدت لها الملامح المكفهرة للرجل الذي كان يقف بلا حراك كأنما نحت من الصخر. ونظرت الى يديه اللتين أدخلتا الحيرة الى نفسها وكانت تظنهما يدي جراح ونسجت حولها قصة خيالية وهي تحاول اكتشاف السرّ الذي أدركت بحاستها الغريزية أنها تخفيانه.

وأخيراً تمالكت نفسها وخرجت عن صمتها قائلة:

«لماذا... لماذا لم تخبرني؛ لا أعرف ماذا أقول. انه لأمر شديد...»

وأخذت تهز رأسها، وهي عاجزة عن أن تعبر بالكلمات عما يجيش في صدرها من أحاسيس بعد أن عرفت من هو، وهي تدرك أن أي كلام تقوله لن يؤدي الا الى تجديد الآمه. وفجأة تغلبت عليها عواطفها، ولم تستطع السيطرة على نفسها، واندفعت نحوه لتمسك بيديه وتضغطها على خديها. وكانت في تلك اللحظة على استعداد لأن تمنح أي شيء، وتفعل أي شيء، ان كان هذا سيعيد هاتين اليدين الى العزف من جديد.

واهتزت الرؤى أمام عينيها، وفجأة دفعها بعيداً عنه بفظاظة قائلاً:

«لا تفعلي هذا، ولتنسي ما حدث.»

فردت عليه هامسة:

«كلا، سيكون من الحمق أن نحاول هذا، وأنا أعرف أنني لن أستطيع، ولا أدري كيف يمكنك أنت أن تفعل هذا. فقال لها في مرارة:

«ليس أمامي أي خيار آخر، وربما أدركت الآن السبب الذي جعلني أتردد في قبول

دعوة هوديك وولف.»

«وهل هو يذكرك بالأمر كله؟»

«انه يملك البيانو الوحيد الموجود في هذه الجزيرة، ولو كنت أعرف هذا لما جئت الى هنا.»

ولوى فمه قائلاً:

«انه يتمنى من كل قلبه أن يغريني بلمس هذا البيانو، وأن أحاول...»

فصاحت قائلة:

«ولم لا؟ الأطباء قد يخطئون، وقد شفيت يداك، وكيف لك أن تدري أنك غير قادر على العزف مرة أخرى قبل أن تجرب هذا؟»

فقال في تجهم:

«بامكاني أن أعزف تشكيلات من القطع الموسيقية، ولكنني لن أستطيع أن أعزف بالطريقة التي أراها صحيحة.»

«ولكن ألا يستحق الأمر التجربة؟ كيف يمكنك أن تسمح بضياع كل هذا المجد بدون أن تخوض معركة؟ الناس يتعلمون كيف يسيرون من جديد ويفعلون أشياء أخرى كثيرة عقب تعرضهم للحوادث، فلماذا لا تفعل أنت كذلك؟»

«لأن هذه الحالة مختلفة، فعندما يفقد المرء حاسة اللمس لا يمكنه استردادها، أو استرجاعها على الاقل بدرجة الكمال الضرورية بالنسبة الى عازف البيانو، والآن أفضل ألا أخوض في هذه المسألة أكثر.»

قال هذا بنبرة مثبطة للهمة، ودعاها لمشاركته الشراب فاستجابت، رغم أنها لم تكن ترغب، لعلها بذلك أن تخفف بعض آلامه وتزيل جو التوتر القائم بينهما، وفي محاولة منها لتهدئة مشاعره صاحت قائلة:

«يا للسماء! نسيت وتركت غرفة النوم بدون ترتيب.»

وأسرعت الى ترتيب الأشياء التي تركتها مبعثرة بعد انتهائها من استعدادات حفل الزواج، ودخل آدم عندئذ فقالت له انها لا يمكنها أن تظل ترتدي

البيجامات الخاصة به، فقال انها تستطيع ارتداءها، فلديه ثلاثة منها، وعندما سألته عن رأيه في الستائر التي علقتها على النافذة قال لها:

«أعددت لنفسك مخدعاً نسائياً.»

ردت عليه في بطء بدون أن تنظر اليه:

«أعددت لنفسي! ان أي شيء أفعله أو أصنعه هنا هو من أجلنا نحن الاثنين يا آدم وليس من أجلي وحدي. لدي بعض الخطط لجعل المكان أكثر بهجة. أتمانع في قيامي ببعض التغييرات؟»

«كلا! افعلي ما شئت.»

وجلست على السرير بعدما خلعت خفيها، وقالت له أن مارك وعد بأن يعطيها بعض الطلاء ذي اللون البيج والأبيض، وبطلاء الركن الذي يستخدمانه في الطهو، كذلك الحائط الموجود في أحد الجوانب، ونقل المائدة الى هذا المكان فانه سيصبح لديهما مكان لتناول الطعام، وفي استطاعتها أن تصنع ستاراً خلف المائدة. فسألها اذا كانت تستطيع القيام بالطلاء، فقالت له انها لا تعرف الطلاء، ولكنها ستحاول أن تتعلم، ستجرب أي شيء. فقال لها أن تلك هي معتقدات الشباب. فسألته عن الخطأ في هذا، فقال لها ان لا بأس بهذا بشرط أن يدرك الشباب أنه يجب عليه ألا يتوقف عن المحاولة وتحقيق أي شيء أظهر فشله في البداية. فقالت له انها مستعدة لهذا أيضاً، وأنها تعتقد أنه يجب على المرء أن يحاول مرة أخرى.

وصمت آدم لحظة، وسرى الجمود في عينيه من جديد، وقد أحست أنه لم يخطيء فهم المعنى الذي تقصده وقال لها:

«الأمر مختلف، فأنا لم أكن فاشلاً في البداية.»

وخرج فجأة من الغرفة، فقفزت من فوق السرير وتبعته بسرعة وهي تقول:

«لم أقصد هذا يا آدم، وأنت تعلم ذلك.»

ولما أحست روبين بأن المناقشة اتجهت اتجاهاً ينذر بالسوء، أمسكت بذراعه

وقالت له:

«آسفة، وأفهم موقفك جيداً. انني لمزعجة فعلاً، كم اتمنى لو لم يكن هودريك أثار هذا الموضوع، انها غلطته..»

فابتسم آدم وهو يسألها:

«وكيف تكون تلك هي غلطته؟»

فصاحت بلهجة أنثوية قائلة:

«انها فعلاً غلطته، فلقد تشاجرنا رغم أننا ما زلنا في يوم زواجنا.»

فرد عليها بفم ارتسم عليه تعبير التهكم وقال:

«وهل هناك فرق؟ لا أظنك ما زلت تحاولين التظاهر بالمشاعر العاطفية الشاعرية، لا حاجة بك لأن تفعلي هذا فنحن الآن وحدنا.»

فسرت رعدة في شفتيها وقالت له:

«وهل تظن أنني كنت أتظاهر بتلك المشاعر؟»

فهز كتفيه باستخفاف قائلاً:

«اصحيح انك لم تكوني تتظاهرين؟ وكيف لي ان اعرف؟»

«لم أكن أتظاهر، ولا أعتزم الآن التظاهر بأي شيء.»

وأضافت قائلة بصوت منخفض:

«لم أقصد أيذاءك أو مضايقتك بأسئلتي، وعليك أن تعلم أننا كي نعيش سوياً في وئام يجب أن نكف عن المبارزة، وألا يتصيد أحدنا هفوات الآخر.»

فتنهد قائلاً:

«نعم، واعتقد اننا تحدثنا اليوم بما فيه الكفاية، وكان اكتشافك اكثر عمقاً مما ظننت.»

فهمست متسائلة:

«ما زلت أجهل السبب الذي جعلك تخفي عني؟ كان عليك أن تدرك أنني كنت سأعرف بذلك آجلاً أم عاجلاً.»

«أعتقد أن السبب كان واضحاً.»

«وهو أنني كنت سأتزوجك باعتبارك آدم فاند وأنا أشعر بالرثاء لحالك؛ أليس هذا هو السبب؟»

ولم يرد عليها، فأشاحت بوجهها عنه في حزن وقالت:

«كنت أتمنى أن أعرف، لأن الأمر كان سيختلف عندئذ، اذ لم أكن لأقبل الزواج منك لو أنني علمت بهذا.»

«ولم لا؟»

«لأن الأمر غير معقول. ظننت أنك ترثي لحالي بسبب المأزق الذي أنا فيه، واعتقدت أنك تحتاج اليّ بشكل ما، الا أن آدم فاند ليس بحاجة لي. فقد استقر رأيه على الخط الذي يسير عليه في حياته، ولا أحد يستطيع أن يثنيه عن قراره، وخاصة تلك الفتاة التي استثارت فيه روح الفروسية الوهمية.»

ورفعت رأسها في تحدٍ وهي تقول:

«أعدك بألا أظهر أي عاطفة أو أمنحها لأحد بعد الآن، ولكنني أذكرك بأن هذا لا يتفق مع الطبيعة البشرية. قلت أنت نفسك انه اذا اجتمعت الارادة والاخلاص لدى شخصين ففي امكانهما اقامة حياة مشتركة راسخة البنيان، كما أنك ذكرت أيضاً أنني في حاجة الى شخص يعيد تنظيم حياتي المرتبكة، وأنا أقول لك بأمانة انني لم أرغب في الزواج لأن رجلاً ما شعر بالرثاء لحالي، فليس هذا في رأيي هو الأساس الذي يبنى عليه الزواج.»

فقال لها في حدة:

«وهذا هو رأيي أيضاً وأعتقد أنني أوضحته لك، كما أعتقد أنني ذكرت لك أيضاً في البداية أنني سأترك لك تحديد مدى التقدم الذي يتم في علاقتنا العاطفية.»

فتساءلت في اعياء:

«وأي تقدم يتحقق؟ ان الأمر... اننا متزوجان...»

«نعم ولكننا نقف عند مستويين عاطفيين مختلفين تمام الاختلاف.»

وأضاف في تجهم قائلاً:

«حسناً، هل أنت مستعدة الآن لسماع الكلمات المعسولة وهمسات الغزل؟ وهل سوف تصدقينها اذا تفوهت بها؟»

وقاومت في نفسها الرغبة في الصياح لتقول له انها فعلاً تحتاج الى الكلمات الحانية، والى الاحساس بأن مشاعره نحوها لا تتسم باللامبالاة، وأن هناك دفئاً يخفيه وراء تلك المرارة الظاهرة، وأنها هي ليست مجرد شيء دخل حياته ليتعامل معه وفقاً للمنطق الذي يرضيه ويشبع ميله للحياة المخططة طبقاً لجدول أو نظام معين. تمّ هذا الزواج بناء على اقتراحه هو، وفي أي حال لم يتمكنا من أن يصبحا حبيبين لكن في استطاعتهما أن يصبحا صديقين.

وكان آدم يحدق فيها طويلاً مما جعلها تفقد كل مقاومة وأحست بدمائها تكاد تشتعل.انه يعتقد أنها ترغب في... واستطاعت بعد جهد أن تبقي على نظراته مشدودة اليها وهمست قائلة:

«انك لا تجعل الأمر سهلاً بالنسبة اليّ، أليس كذلك؟ هل تعتقد أنني أتطلع للظفر بحبك لي؟ أعرف جيداً أنه جرت العادة على أن يخطو الرجل الخطوة الأولى.»

«نعم، ولكن ليس في مثل هذه الحالة، وقد اعتقدت أنك فهمت ذلك، ولا أظن أن حق الحب ينبع بدافع من الشعور بالواجب، وكأنه التزام عليه التقاليد المتعارف عليه.»

فتنهدت روبين وضغطت شفتيها وقالت له:

«وهل يجب أن تصدر هذه العاطفة عن الحافز المحرك للحب أو عن مجرد الرغبة؟ ألا تدرك أن المودة تنشأ عن الكرم وعن التقارب في حياة الوحدة، أو هي تنشأ عن المصالح المشتركة، هناك أشياء كثيرة جداً تولد هذه العاطفة بحيث يطول شرحها.»

أشاحت بوجهها عنه وهي تضيف قائلة:

«انك في حقيقتك رجل كريم جداً على الرغم من الشخصية الأخرى التي تحتجب خلف جدار في داخلك، أعطيتني الشيء الكثير...»

وأخذت تجول ببصرها تلقائياً في أرجاء الغرفة وتنظر الى خزانة الملابس المفتوحة وقد ظهر ما بداخلها، وأضافت تقول:

«منحتني بيتك، وأنا لا يمكنني أن أظل آخذ وآخذ بدون...»

وتوقفت عن الكلام مرة أخرى وقد أعيتها الحيلة، وأحست بصراع في داخلها، وبنوع من الخجل لأنها أصبحت تعتمد على شفقة وكرم رجل غريب، ولأن هذا الغريب عرف طريقه الى قلبها بصورة ما قبل أن تدرك مدى الخطر الذي تنطوي عليه تلك الرابطة الحمقاء. ورد عليها آدم في هدوء:

«أعرف هذا. ولكن لا تظني أنني تطلعت لشرائك أو شراء الشفقة منك بصندوق مليء بالملابس القديمة؟ تزوجتك يا روبين لأحميك، وهذا هو كل ما في الأمر، تصبحين على خير... وليباركك الله.»

وأغلقت روبين باب غرفتها لتعود الى عزلتها اليائسة. وخلال الصمت الذي خيم حولها أخذت تسترجع كلماته التي وجدت صدى لها في دقات قلبها. انه هو، وليست هي، الذي أوضح من الذي يقرر مدى التقدم الذي يتحقق في علاقتهما العاطفية. الى أين سينتهي بها هذا الوضع؟

٦ ـ نشاز

مع بزوغ ضوء النهار كانت روبين قد حفظت عن ظهر قلب كلاماً كثيرا واستعدت لتقوله عندما تواجه آدم على مائدة الافطار، ولكن عندما حانت اللحظة المناسبة قررت أن تلوذ بالصمت. وفي أي حال لم يبق كلام يمكن أن يقال.

تعمدت أن تبتعد عن طريقه أثناء ذهابه الى الحمام وخروجه منه، وكانت غرفة الجلوس خالية عندما دخلتها. وكان قد ملأ أبريق الشاي بالماء ووضعه على الموقد ليغلي. وبعد مضي أسبوع ألفت طريقة اعداد طعام الافطار، وأصبحت تعرف ألوان الطعام التي يفضلها آدم وتلك التي لا يحبها، وانتقت تفاحتين كبيرتين ورديتين، وأخذت تفكر فيما ستكون عليه قائمة الطعام بعد مضي أسابيع أخرى. فلقد وصل القارب الى الجزيرة في الأسبوع السابق وامتلأت من جديد خزائن الأطعمة. لو كانت روبين قد وصلت الى الجزيرة قبل يومين من الموعد الذي وصلت فيه لكانت كل مشكلاتها قد وجدت طريقها الى الحل. لديها الآن كميات من الفاكهة وكيساً من التفاح ومجموعة من الموز الأخضر، وبرتقالا وطرب... جزرت وكميات من البيض تمّ تخزينها في الثلاجة في محطة الرصد ولكن آدم حذرها أنه مع مرور الاثني عشر أسبوعاً ـ وهي الفترة التي تمر قبل وصول القارب التالي ـ فان مجال الاختيار في قائمة الأطعمة يصبح محدوداً، ويعود المرء للاعتماد على المعلبات في غذائه.

وسمعت باب الغرفة الصغيرة الواقعة خلف غرفتها يغلق، فأدركت أنه الوقت لتضع ثلاث بيضات في الوعاء وتسلقها.

وسمعت خطواته تقترب من غرفتها، ولم تلتفت نحو، عندما دخل والقى تحية الصباح التي اعتادها طوال أيام الأسبوع الماضي ـ صباح الخير ـ فردت عليه بالمثل.

ووضعت وعاء القهوة على المائدة، وجلست في مواجهته، حريصة على تجنب النظر الى عينيه. ثم قامت بسكب القهوة وغطت قطعة من الخبز بطبقة من الزبدة وراجعت عداد التوقيت الخاص بالبيض، وكان من الصعب عليها ألا ترمقه بعينيها وهو يتناول البيض، ولكنها نجحت في تجنب هذا، وأنهى هو الآخر طعامه في صمت.

وعندما حان موعد الوجبة التالية، بدأت روبين تشعر ببعض الخوف وباحساس واضح بالغضب الطفولي، ولكنها أدركت أن استمرارها في صمتها ليس سوى تصرف أحمق وصبياني. وهل سيتقبل هو صمتها؟ ما هذا الذي بدأت تفعله؟ وماذا ستفعل لو أنه استيقظ كل صباح وراح يمارس نشاطه المعتاد متجاهلاً وجودها؟

ولكن يبد وأنه اعتزم حقا أن يفعل هذا، فقد استرخى على كرسيه وأشعل سيكارة، ولأول مرة راحت ترمقه بنظرات مباشرة وتتفحص وجهه بتعبيراته الباردة ونفث دخان السيكارة من فمه وقال لها:

«الى متى ستستمر مؤامرة الصمت هذه؟»

فاسترخت قليلاً في كرسيها وقالت:

«وهل هناك ما يقال؟»

«كلام كثير كما أعتقد، حسنا سألتقي بك في منتصف الطريق، ربما كان هناك كلام كثير قد قيل بالأمس وكان يجب ألا يقال.»

وحرّك حاجبيه بطريقة فهمت منها أنه ينتظر ردها، فترددت ثم قالت أخيرا في بطء:

«كل ما قلته كان خطأ على مايبدو، أو قد أسيء فهمه.»

وأشاحت بوجهها عنه وهي تضيف قائلة:

«ربما لو كنت صريحاً معي من البداية لكنت تجنبت أي كلام لا يجب ان يقال.»

فضاق حاجباه السوداوان ثم استرخى في مقعده وهز رأسه قائلاً:

«كم أنت طفلة يا روبين، وجدت نفسك فجأة مطالبة بأن تضحي وتواجهي !! !!.. وأنت تبذلين جهداً شاقاً في هذا السبيل الى درجة تسبب الايذاء.»

فردت عليه بمرارة:

«أحاول ألا ألحق الأذى بأي أحد آخر.»

«أعلم هذا، وأقترح أن تتوقفي عن بذل تلك المحاولات، وعليك بالسير قبل الركض، ومواجهة المواقف في حينها، فهذا أسهل بكثير.»

وأخذت نبرات صوته تكتسب رقة وهو يقول لها:

«الكبرياء والخضوع لا يصلحان لرفقة دائمة كما تعلمين، فالكبرياء تدفعك الى التعالي وعدم الاعتماد على أحد، والخضوع يحز في النفس، لأن القدر جعلك تعتمدين عليّ في معيشتك.»

«رتبت كل هذا، أليس كذلك؟»

«لا أحد يمكنه أن يحدد الخط الذي تسير فيه الحياة، ولكنك تواجهين الحياة وتعملين على تشكيلها وفقاً لرغباتك، على أن تضعي في اعتبارك أن القدر له الكلمة الأخيرة عادة.»

«يبدو لي أنك قدري.»

«كلا فأنا مجرد انسان واقعي.»

ونهض واقفاً وهو يقول:

«والآن لدي بعض الأخبار لك.»

وانتظر عند الباب حتى لحقت به وتقدمها، ودار خلف المنزل وأطلق صفيراً معينا استجاب له الطائر ميكي الذي حلق بجناحيه واقترب منه. فقام آدم بتكسير قطعة خبز الى كسرات صغيرة وضعها في كفه، فحلق ميكي وهبط

بالقرب منه وهو ينظر الى الطعام، فطلب آدم من روبين أن تقدم له الخبز في يدها لأن الطائر يعتبرها الآن بمثابة أمه. فمدت روبين له يدها بكسرات الخبز فالتقط واحدة منها، ثم حلق ليستقر فوق غصن منخفض فسألت روبين:

«متى بدأ التحليق لأول مرة؟»

«صباح اليوم، على ما أعتقد»

«حاول مرات كثيرة التحليق الى هذا الغصن، وانشغلت عن مراقبته خلال اليومين الماضيين.»

وأضافت بصوت حزين:

«أعتقد أننا سنفقده، فسوف يطير الى الغابة وينضم الى أقرانه.»

«أشك في هذا، فهذا هو بيته الآن، البيت الذي أطعمه، فلا تقلقي، سيعود وربما أحضر معه أيضاً أصدقاءه وأقرباءه، ولكن علينا أن نخفف من كمية الطعام التي نقدمها له عندما يصبح قادرا على التحليق بجدارة حتى يعتاد الاعتماد على نفسه.»

وبدأ آدم يتحرك عائداً الى المنزل، ولاحظ تعبيراً حزيناً على وجهها، فلمس كتفها وطلب منها ألا تحزن ميكي سيصبح، قبل مضي وقت طويل طائراً مؤذياً، فنظرت اليه في تشكك، ولكن آدم ابتسم وقال لها انها لا تعرف طباع الطائر المحاكي، انه طائر سيء السمعة يتصف بالنهم، وأن عليها أن تنتظر لكي تتأكد من هذا.

ولم يمض سوى أقل من أسبوع حتى تأكد لها صحة كلام آدم، اذ أصبح ميكي قادراً على الطيران، وأخذ يتنقل بين الأشجار ويحوم حول المنزل ويتطلع من النافذة الى مائدة الطعام التي تعدها روبين، حتى أدركت أنه لن يتوانى عن اقتحام النافذة للسطو على الطعام، وأعربت روبين عن دهشتها للسرعة التي تم بها استئناس هذا الطائر البري في مثل هذا الوقت القصير.

وبدأ النشاط اليومي يأخذ طابعاً نمطياً، ودهشت روبين وهي ترى مدى

العمل اليومي المطلوب من آدم انجازه بالنسبة الى ملجأ الطيور في الجزيرة، لتسجيل حركة الطيور وتسجيل نشاط الطائرين اللذين يقيمان في هذا الملجأ، بما في ذلك تدوين الملاحظات المتكررة في أحيان كثيرة الا أنها ضرورية، وتحميض الأفلام الفوتوغرافية وطبعها، مع الربط بينها وبين تلك الملاحظات والتواريخ، فضلاً عن الرسوم التوضيحية التي يقوم بها، مما يعكس موهبته في الرسم. كما يتحتم على آدم أن يمضي ساعات كل يوم في ملجأ الطيور، مما يجعل روبين تشعر خلال تلك الساعات بأنها تفتقد شيئاً هاماً في حياتها اليومية. وسألته روبين فجأة:

«متى سيتاح لي أن أشاهد ملجأ الطيور وأزور قدس الأقداس هذا، وهذه الطيور الأسطورية؟»

«اليوم ان شئت، هذا ان كنت مستعدة لتحمل بعض المشاق.»

فاتسعت عيناها وسألته:

«وهل مراقبة الطيور تتطلب أن نجلس على الطين أو فوق شجرة؟»

«ليس الأمر هكذا، ولكن هناك سقيفة تتسع لشخصين بالكاد ولا تسمح بحرية الحركة، وعلى الزائر أن يحرص على عدم إزعاج الطيور.»

فقالت بارتياح:

«لابأس بأن يقيد المرء حركته لبعض الوقت، وانني أعد بأن أظل ساكتة وألزم الهدوء، ان كان هذا هو كل المطلوب.»

«موعدنا إذاً بعد تناول الغداء، وسأتركك الآن لشؤونك المنزلية.»

حياتها أصبحت منظمة الآن مما جعلها تنتهي من شؤون المنزل بسرعة، وليس أمامها أي أفلام يلزم تحميضها أو طبعها هذا الصباح، وعندما رحل ميكي لاجراء مزيد من الاستكشاف للمنطقة المحيطة، خرجت الى الشرفة لتمتع بصرها بمنظر التل الأخضر تحت أشعة الشمس، والبحر المتلألىء عند بعد، وكانت على وشك أن تخرج للسباحة عندما حضر زائر.

انه «توني ستيفنز» الذي استأذن في الدخول بطريقته الصبيانية فدعته لتناول القهوة في الشرفة. قال «توني»:

«لا أدري اذا جاءت زيارتي مبكرة جداً عن وقتها الملائم، قال لنا «مارك» انه يجب علينا الانتظار حتى توجه الينا الدعوة، ولكنني أعتقد...»

فقالت له في لهجة تهكمية:

«انا سعيدة جداً لأنك لم تنتظر، وأرجو أن تبلغ «مارك» عن لساني بأنني آمل ألا يكون معنى هذا أنه يتحتم علينا أن ننتظر تلقي دعوة قبل أن نقوم بزيارتكم في محطة الأرصاد الجوية.»

رد عليها «توني» في سخرية:

«أعتقد أنه يجب عليك ابلاغه تلك الرسالة بنفسك، وفي اي حال جئت لأعرض عليكما استعدادنا لاعارتكما جهاز الفونوغراف الخاص بنا لتستخدماه في الاستماع لبعض الاسطوانات الموسيقية، اذ ليس في الجزيرة أي نشاط يستطيع الانسان أن يقوم به.»

ومرت لحظة من الدهشة قالت «روبين» بعدها وهي تبتسم:

«هذا شعور طيب ولطيف منكم، ولا أجد الكلمات التي أعبر بها عن امتناني لكم.»

ثم تلاشت الابتسامة عن شفتيها وهي تضيف قائلة:

«ولكن ماذا أنتم فاعلون؟ لايمكنني أن آخذ الفونوغراف الخاص بكم، اذ لن يكون لديكم عندئذ أي شيء كي...»

فهز «توني» رأسه قائلاً:

«سيكون هذا مدعاة لاغتباطنا ياسيدتي، لأن الاسطوانات التي لدينا استهلكت لدرجة أنها أصبحت تصدر أصواتاً أشبه بالنباح من كثرة استخدامنا لها، وفي أي حال أحضرت معي الفونوغراف، فهل تسمحين لي بحمله الى داخل المنزل؟»

«أجل، مادام الأمر كذلك.»

ولكن سعادتها سرعان ما تلاشت عندما تذكرت أن التوصيلات الكهربائية الضرورية لتشغيل الفونوغراف غير متوفرة، كما أنها غير متأكدة اذا كان جهاز توليد الكهرباء سوف يتحمل هذا العبء الجديد في الاستهلاك. وبرغم هذا لا داعي لأن تقلق، تم التفكير في تلك المشكلة وأحضر معه «توني» بعض الأدوات وقام باجراء بعض التوصيلات الكهربائية لتشغيل الجهاز، وطلب منها أن تتصل بالمسؤولين في محطة الرصد اذا حدثت أي مشكلة في هذا الشأن.

وأحست بمتعة وهي تعد القهوة على أنغام الموسيقى التي جعلت الوقت يمر سريعاً بدون أن تشعر، وحان وقت انصراف «توني». انه صبي ودود، وقد استاءت عندما علمت بقصة فشله في الحب، وعودة فتاته الى موطنها في «ويلمنغتون» حيث وجدت رفيقاً آخر. وقاومت رغبتها الدفينة في أن تسري عنه بتلك العبارات التقليدية التي تقال في مثل تلك الحالات.

وبعد انصرافه قامت بتشغيل اسطوانة ثانية، وخرجت الى الشرفة لتستمتع بنسيم البحر المنعش مع أنغام الموسيقى المبهجة، وأخذت تردد احدى الأغنيات الى أن توقفت الموسيقى، وعندما قامت لتغيير الاسطوانة سقط أحد قرطيها، فجثت تبحث عنه، وقد نسيت الاسطوانة. أنه القرط الوحيد بين الأشياء القليلة المتبقية في حوزتها، وفضلاً عن ذلك له قيمة كبيرة ومنزلة خاصة في نفسها، بغض النظر عن قيمته المادية، لأنه كان يخص أمها.

وأخذت تبحث عنه حول الشرفة وفي المكان الذي تتوقع أن يكون قد تدحرج اليه، ولكن بدون جدوى، ونهضت واقفة في تراخ. ونظرت الى تلك الورقة المكومة في يدها التي التقطتها بدون قصد وهي تبحث عن القرط وسط الحشائش، يبدو أنها رسالة، وأمكنها أن تتبين كلماتها رغم أنها كانت تمحى بفعل الأمطار، وصعدت درجات السلم الثلاث في تباطؤ لتدخل البيت، وأوشكت أن تطوي الرسالة من جديد لتلقي بها، اذ لا شأن لها بما فيها أو بمن كتبها، ولكنها لاحظت اسم «آدم» فتوقفت.

وترددت لحظة لكنها لم تستطع أن تمنع بصرها من المرور على السطور، وتملكها شعور بالصدمة والاستياء بعد أن تفهمت ما حواه الخطاب، ثم أحست بالغضب الشديد والضيق الى درجة جعلتها تتمتم ببعض الكلمات بصوت مرتفع، ونسيت قرطها المفقود وكل شيء آخر وهي تنظر الى الكلمات المدونة بالحبر الأزرق على ورقة عاجية اللون:

سيأتي الوقت، ياعزيزي آدم، الذي تشكرني فيه لهذا القرار المؤلم لي، كما أعتقد أنه سيكون مؤلماً لك، ولكنني أشعر بأن كلاً منا يحس في قرارة نفسه بأن الأمور لا يمكنها أن تعود كما كانت، وسأظل ألوم نفسي دائماً وأتساءل اذا كان هناك شيء كان في مقدوري فعله أو وسيلة ما تمنحني البصيرة حتى يمكن تجنب الكارثة التي وقعت، ورغم أننا نعلم أن ما حدث كان خارج نطاق السيطرة الارادية البشرية، فسأظل أشعر دائماً بالذنب، لأنك أنت الذي أصبت وأنا الأداة التي أصابتك، ربما أتعلم كيف أتعايش مع هذا الشعور، ولكنني أعرف أنني لا أحتمل أن يأتي يوم تنظر فيه الي، وأرى المرارة في عينيك لأنني كنت السبب في هذه المرارة، ظننت في البداية أن حبنا سيكون كافياً لمواجهة مثل هذا الموقف، ولكن منذ فراقنا أخذت أدرك أن الأمر لم يكن كما تصورت، ولا أملك الشجاعة لاقتحام المغامرة وسيظل شعوري بأن حبنا انما هو ضرب من المقامرة باق على الدوام وهذا مالا أستطيع احتماله، أؤكد لك أنني لا أفكر الا في مستقبلك فقط ومن الأفضل بكثير أن يتألم الانسان الآن بدلاً من أن يظل يتألم على الدوام، حاول أن تصفح عني، ان لم يكن الآن فليكن فيما بعد، وحاول أن تفهمني. ستيللا...

تلك هي ستيللا، آخر جزء من حياة آدم الضائعة، والآن تمزقت تلك الحياة تماماً ولم يبق منها شيء، وفجأة أخذت روبين تضغط بأصابعها بشدة على الرسالة وتكاد تسحقها كأنها تريد أن تسحق كل ما ينطوي عليه من معان وتقضي عليها، وتملكها الغضب نحو الفتاة التي غدرت به، كيف تحملت انزال الألم من خلال هذه الرسالة برجل فقد أغلى ما عنده، مهنته وفنه والموهبة التي

حافظت على كيانه والتي يتعذر تعويضها، وجلست روبين على درجات سلم الشرفة وقد تولد في داخلها احساس عاطفي رائع، وهي لم تسمع الأصوات المحيطة بها في الجزيرة أو تشعر بمداعبة النسيم لها لأن أول براعم الحب أزهرت تملك عليها كل كيانها، وأيا كان ما سيأتي به المستقبل فانها لا تريد شيئاً سوى أن تمنحه حبها، وتضع العالم بين يديه وتحقق له السعادة والنسيان، فهل تستطيع هذا؟

ولم تحس، وهي في غمرة تلك المشاعر والأحاسيس والأفكار، بمجيء آدم الذي سمعت خطواته وصوته فجأة بالقرب منها، فأسرعت بوضع الخطاب في جيبها، ومدت يديها لآدم الذي ساعدها على النهوض ثم وضع ذراعه على كتفيها وهما يدخلان البيت وسألها:

«هل أنت على مايرام؟»

«نعم، ولقد افتقدتك، وانتي في انتظار موعدنا المتفق عليه بعد ظهر اليوم.. يا الهي... الكعكة...»

وأسرعت مندفعة نحو الفرن ثم قالت:

«أدركتها في الوقت المناسب، وكل شيء على مايرام، أصبح في بيتنا موسيقى الآن، حضر توني ومعه فونوغراف.»

ووضعت الكعكة فوق المائدة وأسرعت نحو الفونوغراف قائلة:

«هل أقوم بتشغيل احدى الاسطوانات؟ انها فكرة مارك؛ أليس هذا تصرفاً لطيفاً منهم؟ البيت يسوده السكون أثناء غيابك، وتلك هي الاسطوانة التي أفضلها، ان فيها ايقاعا مثيراً يجعلني أرغب في...أوه... البطاطا يكاد ماؤها يجف فوق النار...»

واندفعت مرة أخرى نحو إناء البطاطا في حين أخذ آدم يتابعها في قلق، وصاح فيها وهو يخطو الى الأمام:

«لاتلمسيها...ستحرقين يديك.»

«أدركت هذا عندما لمستهاه

وأحست بألم في أصبعها، ولكنها أخذت تبتسم قائلة انه سيتحسن خلال دقيقة، فأسرع نحوها وطلب منها أن تريه أصبعها المصاب وفتح يدها بقوة، ولم تحس روبين عندئذ بأي ألم كل ما شعرت به هو حرارة أصابعه القوية، ووجهه الذي أصبح قريبا جداً منها وهو يتفحص أصبعها، انها تريد أن تقول له انها تعرف ما جرى له، وانها تمنحه حبها، وتطوقه بذراعيها حتى ينسى ولا يصبح لستيلا أي أثر في حياته، ولكنها بدلاً من ذلك قالت له:

«أصبعي في حالة طيبة، كما ترى.»

فأجاب وهو يترك يدها:

«أجل، ولكن عليك بالحذر في المرة المقبلة. كان يمكن أن تصابي بحرق شديد.»

وقامت باعداد المائدة لطعام الغداء وهي مازالت مضطربة قليلاً بفعل الانفعال العاطفي الشديد الذي تملكها، وجلست تنظر اليه صامتة، ثم سألته عن رأيه في الكعكة التي صنعتها، فقال لها انها لذيذة عدا بعض الأجزاء التي احترقت، وسألها اذا كان توني أمضى هنا وقتاً طويلاً فقالت انه مكث ساعة تقريباً قام خلالها بالتوصيلات الكهربائية وتناول القهوة. فهز رأسه بدون أن يعقب بشيء. ولزم الصمت أكثر من عادته عندما توجها الى السيارة في طريقهما الى ملجأ الطيور، ولم يقل شيئاً عن الفونوغراف نظرا لأن الحرق الذي أصاب يدها من وعاء البطاطا طغى على أي مسألة أخرى. ثم خطر لها أنه لا يريد لأحد أن يذكره بأي شيء له صلة بالموسيقى أو بوسائل توصيلها مهما كان نوعها، وتذكرت الحوار الذي دار بينهما ليلة عرسهما عن هودريك وولف والبيانو الثمين الذي لا يحلم أحد بأن يجده في تلك البقعة النائية وسط المحيط. قال لها آدم ليلتها انه لو علم بوجود هذا البيانو في الجزيرة لما جاء اليها. ووضعت وأخذت تفكر فيما سيحدث مساء اليوم التالي عند زيارتهما هودريك وولف . وسرت رعدة في جسمها وهي تتساءل لماذا كان باستطاعة آدم أن يدخل تلك الغرفة

متجاهلاً وجود البيانو.

وطلب منها آدم أن تمسك بمقعد السيارة لأن الطريق وعرة نوعاً ما في هذه البقعة، وأخذت السيارة تشق طريقها لتخرج من منطقة الغابة الى منطقة صخرية وعرة، ثم تدلف الى ممر ضيق ملتو وسط الغابة. وتوقف آدم بالسيارة وطلب منها النزول لأنهما سيجتازان بقية الطريق سيرا على الأقدام، وأشار اليها أن تتبعه وهي حذرة لئلا تسقط في بركة من الطين. سارت خلف آدم وقد علق المنظار في عنقه وراح يسير معها في الممر الضيق حتى وصلا الى نقطة طلب عندها آدم أن تلزم الصمت، ورأت ملجأ الطيور المغطى جيدا بالأغصان وأوراق الشجر وبطريقة مموهة. وقد أطل على البحيرة الممتدة في شكل يشبه نصف القمر.

وأمسك بيدها يساعدها على الصعود، ودلفت الى ملجأ الطيور في هدوء كأنها تؤدي طقوساً. ووسط الظلام راحت تتلفت بحثا عن آدم، الذي كان على حق عندما قال لها من قبل ان الملجأ لا يكاد يتسع الا لشخصين، وسمعت آدم يقول لها ان بالداخل مقعدا تستطيع الجلوس عليه، فبحثت عنه على بصيص من الضوء وجلست عليه، وقالت انها لا تكاد ترى شيئا ـ فطلب منها أن تمسك بنظارة الميدان، وتضبط البعد حتى يتضح المنظر الذي أمامها، وذلك ريثما يقوم هو بتغيير الفيلم في آلة التصوير، وصاحت في دهشة اعتذرت عنها في الحال قائلة:

«الطائر الأم يتجه نحو الماء، ما أجمل هذه الطيور!»

وابتسم آدم وهو يراقب معها طائري الفرنوق الجميلين وهما واقفان عند حافة الماء. وفي الحال نشرت الأم جناحيها الكبيرين وراحت تحلق في أرجاء المنطقة، بينما لزم الطائر الآخر السكون. وأخذت روبين ، التي أتيحت لها فرصة نادرة لمراقبة مثل هذه الطيور من تلك المسافة القريبة، تدرس هذا الطائر المرتفع الساقين. وبدأت تفكر في تلك الأنواع الأخرى من الطيور والحيوانات النادرة،

التي تكاد تنقرض بسبب المذابح التي تعرضت لها في رحلات الصيد على مدى قرون. انقرضت أنواع كثيرة، وهناك أنواع كثيرة أخرى في طريقها الى الانقراض ما لم تبذل جهود لانقاذها قبل فوات الأوان. حدثها آدم عن طيور الغرانيق التي تقطن أمريكا الشمالية، وتم احصاء خمسين نوعاً منها، وقلة من هذه الأنواع تعد نادرة وجميلة، ومن بينها الطائران اللذان ترقبهما أمامها.

تحرك آدم ليأخذ منها المنظار، فمسحت يده يديها، ومال قليلاً نحو كتفها وهو يضبط البعد وأحست فجأة بضغط جسمه وحرارته ولمساته التي فجرت فيها مشاعر عميقة وأخذت تسري في ذراعها، الا أنه كان يبدو كأن وجهه يبعد عن وجهها ثلاثة أميال لا ثلاث بوصات. وأخذت تتفحص قسمات وجهه وفمه وهي على أحرّ من الجمر الى لمساته، ثم تنهدت وأشاحت بوجهها عنه. وسألها آدم اذا كانت تحس بأن حركتها مقيدة، معتقداً أنها تتنهد لهذا السبب، فقالت له:

«كلا.»

ولفت نظرها طائر الغرنوق الذي عاد ليرقد فوق البيض، وقاومت الاغراء بالتحرك الى وضع أكثر راحة، فقال لها آدم:

«قلت لك، المكان غير مريح.»

وأعطاها المنظار وأمسك بآلة التصوير وسألها اذا كانت تريد سيكارة، فأجابت بالنفي وشكرته. ورأت أمام عينيها شيئاً ما يتحرك ولكنها لم تكن متأكدة منه، فدعت آدم لينظر بنفسه اذ ربما تكون أخطأت، لكنها تأكدت من صحة اعتقادها عندما رأته يترك النظارة ويمسك بآلة التصوير. كانت هناك بيضة في حالة فقس، وراحت تراقب الفرخ وهو يحطم قشرة البيضة تدريجياً ليخرج منها، وفجأة عادت الأم تحجب المنظر بجناحيها الكبيرين فاستاء لذلك آدم، وسألته روبين:

«كم من الوقت سيستغرقه هذا الفرخ قبل أن يتمكن من أن يطير؟»

«شهران على الأقل.»

«سنراه اذاً وهو يطير قبل أن نرحل عن الجزيرة.»

«هل تفكرين حالياً في الرحيل؟»

فأطرقت هنيهة وقالت:

«كلا، ولكن سيتحتم علينا أن نعود الى الوطن في وقت ما.»

«هذا صحيح.»

وقام باخراج الفيلم من آلة التصوير التي وضعها في حقيبتها، وأثناء ذلك احتجبت الشمس وراء السحب المنتشرة فوق التلال، ومع اقتراب المساء بدأ الجو يبرد وسرت رعدة خفيفة في جسم روبين التي أدركت أنها ضيعت الفرصة السانحة أمامها خلال تلك الساعات لتقترب من آدم أكثر وتجعله يشعر بها. ولكن أتراها كانت ستنجح في هذا؟ ربما ولكن فات الوقت الآن، وكانت الفرصة سانحة جداً فهل تتكرر؟

لايمكن أن توصف الأمسية التي أمضياها مع هودريك وولف بأنها حققت نجاحاً كبيراً. ولاحظت في البداية أن والدو ليس مجرد خادم عادي يعمل لدى هودريك، لكنه يعتبر العمة العجوز في البيت. جلس والدو معهما الى المائدة لتناول طعام العشاء اللذيذ الذي قام هو نفسه باعداده، ودار حوار بينها وبين والدو حول طرق الطهو. قال، والدو انها بمضي الوقت ستكتسب المهارة في الطهو، ولكن عليها أن تعلم أنه بدون المشهيات والتوابل فانها لايمكنها أن تقيم مأدبة.

ولاحظت روبين مدى فخامة تلك الفيلا وما بها من أثاث ثمين، وسجاد وستائر ومفروشات، وكذلك البيانو الذي يحتل مكاناً بارزاً في الفيلا ويشرف على البحر، لكنها أحست بأن البيت الذي يجمع بينها وبين آدم أكثر ملاءمة للمعيشة.

ونظرت الى البيانو، ثم رمقت آدم لتتبين رد الفعل لديه وهو يرى غطاء البيانو مفتوحاً أمامه، وكراسات القطع الموسيقية مبعثرة بالقرب منه، ولكنه ظل

جامداً ووجهه لاينم عن أي انطباع. ولاحظ هودريك نظرات روبين فسألها:

«هل تعزفين ياعزيزتي؟»

فردت عليه بصعوبة:

«قليلاً.»

فقال لها وهو يبتسم:

«اذاً فالبيانو طوع أمرك ان شئت.»

فهزت رأسها وهي تقول:

«كلا. القطع التي أعزفها خاصة بالأطفال.»

وقال لها آدم فجأة:

«لم أكن أعرف أنك تعزفين. لماذا لم تبلغيني بذلك؟»

فهزت كتفيها وهي لا تريد أن تقول له ان الأمر كان مؤلماً، وانه لم يشجعها على ذلك، وأشاحت ببصرها عنه.

وقال له هودريك وهو يلاطفه:

«سوف تندهش يا صديقي للمنجزات التي تحققها زوجتك بمضي الوقت. فقد تبين لي أن النساء صنفان: صنف لايستطيع أن ينجز ولكنه يعتقد أنه يستطيع، وصنف يستطيع ولكنه يترك مواهبه تدفن نتيجة للضعف الأنثوي.»

فقالت له وقد شعرت فجأة بالغيظ لكلامه:

«ولكن ماذا عن الصنف الوسط بين هذين الصنفين؟»

ان أحداً لايستطيع أن يجري مثل هذا التقسيم ويجعل الخط الفاصل بين القسمين نهائياً.

«هذا الصنف الوسط لاقيمة له، لأنه قانع بأن يظل خاملاً فاتر الهمة كالأبقار.»

فالتقطت روبين أنفاسها بحدة، وأعربت عن استنكارها لهذا الكلام وقالت له:

«من الواضح أنه ليست لديك دراية كبيرة بالنساء.»

فضحك ومد يديه قائلاً:

«أرأيت؟ المرء اذا واجههن بالتحدي سرعان ماينفعلن ويغضبن، مثلما تفعلين أنت الآن. بدلاً من الاحتفاظ بهدوء الأعصاب واستخدام الذكاء في الاعداد لشن هجوم ساحق.»

واقترب منها ووضع ذراعه بخفة على كتفيها وقال لها:

«أرجو أن تسامحيني ياعزيزتي، لأنني لا أستطيع أن أقاوم رغبتي في تحدي النساء. وللأسف عثرت مرة على واحدة تفوقني في القدرة على الجدل التحليلي وبرود الاعصاب، وكنت أرغب في الزواج منها ولكنها لم تقبل.»

وسحب ذراعه من فوق كتفيها وهو يضيف قوله:

«ومن هنا فانني أسعى للانتقام من كل امرأة أقابلها. فالأمر اذاً يصبح بسيطاً، كما رأيت، عندما يعرف المرء السبب.»

سألته وقد شعرت بالارتياح لأن النقاش تحول الى موضوع آخر غير الموسيقى:

«ألا تشعر بالوحدة هنا؟ ألا تفتقر الى رفيق لتشحذ معه موهبتك في الجدل التحليلي؟»

«كلا. لا حاجة بي الى هذا. فأنا أعود الى أوروبا مرة كل عام، وأزور رفاقي وأصدقائي القدامى. ولكنني لا أفتقد شيئاً في هذا العالم. فقد اعتدت أن أكون مكتفياً ذاتياً، وأعتقد أن الكثيرين منا سيكونون أكثر سعادة اذا نحن غرسنا في أنفسنا القدرة على العيش على مواردنا الذاتية. فاليوم نحن نواجه خطر الاعتماد المبالغ فيه على الآخرين، في مجالات التسلية والعاطفة، بل وفي تشكيل وجودنا نفسه. مما يجعل قوانا الذاتية تضمحل نتيجة لعدم استخدامها.»

فقالت روبين:

«هذا صحيح الى مدى معين، ولكن ألا يعني هذا، ضمناً، أن يعزل الانسان نفسه عن أي صدام مع أقرانه، وهو الصدام الذي يؤدي على الأقل وظيفة منشطة؟»

فقال آدم في هدوء:

«الصدام يدمر أيضاً.»

وسادت فترة هدوء قصيرة قالت روبين بعدها في رقة:

«يجب أن نتعلم كيف نصل الى الاتفاق ونحقق الحلول الوسط.»

فرد عليها هودريك قائلاً:

«انها الطريقة الأزلية وغير المرضية للخروج من المشكلات... من الذي قال يوماً ان كل فائدة ومتعة يجنيها الانسان، وكل فضيلة وتصرف حكيم انما جميعاً تقوم على الاتفاق والحل الوسط.»

فهز آدم رأسه وأومأت روبين بأنها لا تعرف، ولكنها قالت له انها ستفكر في هذا في الصباح الباكر، عندما تغمر أشعة الشمس مياه البحر.

واستأذنها هودريك في أن يناقش مع آدم كتابين قديمين يريد معرفة رأيه فيهما، وقال لها:

«أرجو أن تأخذي حريتك في تسلية نفسك كيفما شئت.»

وأغلقا الباب، فراحت روبين تتجول في أرجاء البيت، وعندما وصلت الى البيانو توقفت هنيهة ولكنها ابتعدت عنه ولم تسمح لنفسها بأن تستبد بها تلك الأفكار التي تتداعى تلقائياً عند مشاهدة البيانو، ولفت نظرها جهاز مكبر للصوت ستيريو فونيك وبجواره مكتبة للاسطوانات تحوي أوبرات كاملة. وأخرجت بعضها من المكتبة وراحت تتفحصها. فهودريك ذوق موسيقي رفيع يختلف عن ذوقها وأوشكت أن تعيد الاسطوانات الى مكانها، لكنها لمحت فجأة اسطوانة معيّنة شدت انتباهها فأخذتها قرب الضوء لتتفحصها بدقة.

الصورة المطبوعة على الاسطوانة ليست غريبة عنها، وان كانت تختلف بعض الشيء عن الشخص الذي تعرفه، انها صورة آدم الفنان عندما كان بعيداً عن تلك الجزيرة النائية وسط المحيط الهادي، حيث الرياح والطيور، وموسيقى رذاذ البحر التي لا تتوقف عندما يبلل الزبد الرمال العذراء. كانت تلك الاسطوانة

تضم موسيقى رحمانينوف الشهيرة التي سمعتها روبين مرات كثيرة، ولكن كان يعزف موسيقاه آخرون غير آدم فاند.

وكانت على وشك أن تضع الاسطوانة في الفونوغراف للاستماع اليها، فلا بد أن تستمع الى آدم يعزف، لكنها سمعت أصواتاً فأسرعت باعادة الاسطوانة الى المكتبة، واتجهت كالمحموم ناحية الباب المفتوح، تأمل ألا يكتشف احمرار وجهها عن شعورها بالذنب، ترى كيف سيكون رد فعله لو أنه سمع تلك الموسيقى؟

وقال لها هودريك وهو يداعبها في دهاء:

«قاومت اذاً اغراء هذا البيانو الجميل! انك مثل زوجك لاتتقبلين الحجج والوقائع المنطقية.»

فقال آدم في هدوء غريب:

«لااعتراض لدي على قيام روبين بالعزف اذا شاءت. واذا كنت لم أعد أعزف فذلك ليس معناه أن كل بيانو في العالم يجب أن يصمت.»

وتحرك آدم الى الأمام وقد ظهر بريق غريب في عينيه وأضاف قائلاً:

«في رأيي أنني يجب أن أعرف مدى مقدرة زوجتي.»

فصاح هودريك وهو يسحب مقعد البيانو:

«أحسنت. هذا هو شعوري، أرجو أن تجلسي على المقعد ياعزيزتي، ويمكنك ضبط ارتفاعه وفقاً لرغبتك.»

وأحست روبين بالجو المتوتر الذي يخيم على المكان بدون أن تدرك مصدره، فتراجعت واعتذرت عن العزف قائلة انها لا تريد.

فرد عليها هودريك وهو يهز رأسه بطريقة تهكمية وقال:

«كلهن على هذا النحو، انها لفرصة رائعة تتاح لك، فمن أفضل من فاند يستطيع أن يقوم بدور الناقد لعزفك؟»

وتراجعت روبين خطوة الى الوراء، وهي مازالت متأكدة أن مغامرتها محفوفة بالمخاطر، وردت عليه قائلة:

«أوافقك الرأي، لكنني لا أطمح أن أصبح عازفة، ولم يكن عندي مثل هذا الطموح من قبل، وأنا أعزف لمجرد التسلية، لتسلية نفسي، وليس بصورة دائمة.

ونظر اليها هودريك لحظة، ثم حرك رأسه في أسف وتنهد قائلاً:

«كما تريدين، ياعزيزتي، ولكن اذا لم تسمعينا قليلاً من الموسيقى فيجب علينا أن نلجأ الى الوسائل الآلية لتحقيق هذا الغرض.»

وتحرك هودريك ناحية مكتبة الاسطوانات فأدركت روبين بسرعة نواياه التي تعبر عن الطبيعة الملتوية لهذا المنفى الغريب الأطوار، وأحست احساساً يقينياً بأنه يعتزم تشغيل الاسطوانة المقصودة، وأنه كان يعلم أنها سترفض تعريض نفسها للسخرية وهي تعزف، وعلى الرغم من حياة الاكتفاء الذاتي التي يحياها فان أنانيته دفعته الى هذا التصرف، حتى يباهي بأنه هو الذي تسبب في عودة آدم فاند الى العزف. أراد استدراج آدم ليعزف، سواء من خلال كلمات التملق أو عن طريق روبين نفسها. ورمقت روبين آدم بسرعة، بينما كان مسترخياً في مقعده في سكون بدون أن تنم ملامحه عما يعتمل في رأسه من أفكار. وتحركت فجأة نحو البيانو، وأخذت تقلب صفحات كراسة الافتتاحيات الموسيقية وقالت:

«هناك افتتاحية بسيطة أعرفها، وسبق لي أن درستها، ولا أدري ما اذا كنت حتى الآن قادرة على عزفها.»

ونظرت من طرف عينها الى هودريك، وتأكدت أنها حققت الغرض الذي سعت اليه بمنعه من تشغيل أي اسطوانات. فعاد هودريك وأحضر صندوق سيكار في شكل سلحفاة، وقدم سيكارا لآدم. وكانت مفاتيح البيانو باردة وتتجاوب معها بصعوبة وهي تعزف مما زاد من توترها العصبي، وتمتمت في تململ، وبدأت تعزف من جديد وهي تحاول أن تعيد نفسها الى أيام الدراسة، عندما كانت تعزف بمستوى معين من المرونة، وأخذت تستعيد كلمات مدرس الموسيقى وهو يوجهها في صبر، ولكنها برغم ذلك أخطأت مما سبب لها ألماً شديداً، فتنهدت

واعتذرت بأنها ابتعدت لفترة طويلة عن التمرين.

وقال لها هودريك:

«بذلت جهداً رائعاً.»

وسادت فترة صمت أحست روبين بعدها بآدم يضع يده على كتفها، وهو يوضح لها في كلمات معدودة مواطن الصواب والخطأ في عزفها، وسألها في تهكم عمن علمها طريقة استخدام أصابعها فدافعت عن نفسها قائلة:

«كانت آخر مرة عزفت فيها منذ عامين، وقلت لك انني سأعزف بطريقة مزعزعة.»

واستدارت لتنظر اليه وهي تضيف قائلة:

«واعتقدت أنك ستشرح لي مواطن الخطأ في عزفي.»

وانتظرت أن يستجيب الى طلبها بأن يشرح لها في استفاضة ولكن أملها خاب عندما أغلق كراس الافتتاحيات الموسيقية وقال لها في برود:

«لأظن ذلك، هيا بنا، تأخر بنا الوقت. وتغلب صوته الحازم على كلمات الاحتجاج التي صدرت من هودريك بسبب اعتزامهما انهاء الزيارة فجأة فقدما التحية والشكر الى هودريك بطريقة سريعة، بدت وكأنها تفتقر الى اللياقة. ثم أخذا السيارة عائدين الى البيت وسط ظلام الليل. وعندما اقتربا من البيت توقف، وأخذ ينظر الى أشجار الغابة الكثيفة التي تبدو كالأشباح في ضوء كشاف السيارة، وراحت روبين تختلس النظرات اليه، وهي لا تدري ما يجول في رأسه من أفكار، وتوصلت فجأة الى قرار وقالت له في نعومة:'

«أبلغني هودريك بأن في استطاعتي الحضور الى الفيلا في أي وقت في الفترة مابين العاشرة والظهر للتدريب على العزف ان شئت، فلذا قبلت دعوته هل تراك تقوم؟»

«هل تقصدين أن أقوم باعطائك دروساً؟»

«نعم.»

«كلا، أنصتي اليّ يا روبين...»

وا[illegible] [illegible]يها وقد ارتسمت على وجهه تعبيرات باردة وأضاف:

«أدرك [illegible] [illegible]رات هودريك الصغيرة، ولست مستعداً لأن أصبح موضوعاً لتجار[illegible] [illegible] العودة الى العزف، في استطاعتك الذهاب ان شئت، فأنا أعلم أنه لا [illegible] [illegible] الجزيرة سوى القليل الذي تستمتع به أيّ فتاة، ولذلك فان بامكا[illegible] [illegible]متاع بالقليل المتوفر، ولكن لا تضعيني في الحسبان، ولا تشركيني في هذا [illegible]رع»

ظلت [illegible] وقد احتبس صوتها وتملكها اليأس والضيق بسبب هذا التصلب والعناد [illegible]، مما حال دون أي تقارب عاطفي. وقال لها فجأة:

«هل تحد[illegible] هودريك في هذا الموضوع؟»

وتحدث [illegible]

وتباعد[illegible] [illegible]ناها ثم ضمتهما وأحست بجفاف في حلقها وقالت:

«كلا، ولم [illegible]رؤ على هذا!! لم أتحدث معه اطلاقاً في غيبتك، ولكن...»

وأطرق[illegible] [illegible]صرها وتنهدت، وقررت أن تكون صادقة معه فأضافت قائلة:

«نعم أدرك [illegible] كان يجول في خاطره، انه يعتقد أنه اذا أمكن استدراجك مرة للمس [illegible] البيانو فقد تجد أن...»

واختفى [illegible]وتها، وتلاشت الكلمات، وهي تدرك ألا فائدة ترجى من وراء اصرارها [illegible]ها برغم أنها واثقة تماماً من أن هودريك على صواب وأن آدم مخطىء [illegible] الموسيقى عن حياته الى الأبد، حتى لو أنه لن يعود لاحياء الحفلات [illegible]ية مرة أخرى.

وهمست [illegible] له:

«آسفة، لكن[illegible] لا أستطيع كبت مشاعري أو منع نفسي من الاحساس بالدهشة، اذ كيف يمكن[illegible] [illegible] تتأكد مالم... مالم تثبت لنفسك تماماً أنه لا فائدة، وأن الأمر انتهى.»

وتملكه [illegible] [illegible] مفاجىء بالغضب وقد هرب الدم من عروقه وقال لها:

«لست في حاجة الى برهان أيتها الحمقاء الصغيرة! كيف تستطيعين أنت وكيف يستطيع هودريك أو أي شخص آخر أن يفهم ما أشعر به؟ وكيف لك أن تدركي درجة الكمال المطلوب توافرها؟ اليدان أداة البراعة الفنية، ويجب أن تخلو كل منهما من أي نقص أو عيب! ولم تعد يداي خاليتين من العيوب، وستظلان هكذا على الدوام. لقد أحدثت الجروح اثراً فيهما وتلك الآثار تحول دون تحقيق الكمال، والآن دعك من هذا الموضوع، واعلمي أنني لا اريد شفقة أو عطفاً من أحد، بما في ذلك أنت!»

وبحركة غاضبة أطفأ أنوار السيارة ونزل منها، وتلاشى وقع قدميه وهو متجه الى البيت وكأنه لايعبأ اذا كانت تتبعه أو تبقى حيث هي، وتنهدت في لوعة ودفنت وجهها في كفيها وهتف قلبها: ولكنني لا أريد أن أمنحك شفقة أو عطفاً، وانما أريد اعطاءك السعادة والحب، اذ كنت تتيح لي أن أفعل هذا!

٧ ـ الانفجار الاول

حتى المناورات التي قام بها الطائر المحاكي ميكي صباح اليوم التالي لسرقة الطعام وقت الافطار أخفقت في تلطيف الجو. وارتفع من جديد حاجز التوتر الفاصل بينهما. وترددت روبين في أن تخطو الخطوة الأولى نحو الوفاق خشية أن تقابل بالصد.

وقالت روبين لنفسها في قنوط بعدما انصرف آدم متجهاً الى ملجأ الطيور، ان هذا الجو المتوتر سوف ينتهي وسوف تعود اليه روح الدعابة ويسود بينهما من جديد ذلك التفاهم المشوب بالحذر. إلا أنها لم تستطع أن تتجنب الاحساس بأنها جرحت لأنه لم يقترح عليها أن ترافقه الى ملجأ الطيور. ولأول مرة منذ مجيئها الى الجزيرة يمضي آدم اليوم كله خارج البيت، ليعود في المساء، ويشتغل بتدوين ملاحظاته.

ولن تكون روبين ممن ينتمي الى البشر ان هي لم تنسحب، بسبب هذا الذي حدث، وراء حاجز من الكبرياء والتحدي من صنعها هي، وهو وسيلة الدفاع الوحيدة المتبقية لها. وقد ذكرها هذا بمدى ضآلة ما تعرفه عن هذا الغريب الذي تزوجته. ما الذي جعلها تتزوجه؟ هذا هو السؤال الذي طرحته على نفسها بعد هبوط روحها المعنوية الى أدنى مستوى خلال الايام الثلاثة الفائتة.

واعتدلت لتستلقي على صدرها وهي متكئة بمرفقيها على وسادة من رمال الشاطىء الناعمة. انها تعلم الآن أنها تحبه، ولكنها لم تكن تحبه عندما قبلت الزواج منه، كانت في ذلك الوقت ممتلئة بالمرارة وتشعر بالضياع، فلم يكن لديها

أي حب تدخره لأحد سوى نفسها. استطاع أن يحرك وتراً فيها جعلها تفكر بشيء آخر غير متاعبها. شيطان اللامبالاة الذي استبد بها دفعها لأن تقبل اقتراحه بالزواج، وتربط حياتها بهذا الرجل الذي يشاركها في شيء ما، رغم أن هذا الشيء يتعلق بالماضي المحزن. ولكن أين هي تأكيداته لها بأنه اذا صمم شخصان على إقامة علاقة مستقرة بينهما فلا بد ينجحان؟ صدقته برغم هواجسها وشكوكها، وسمحت لنزوة جنونية بأن تطغى على التعقل...آه لو أنها...

وسمعت فجأة من يقول لها:

«أتأخذين حمام شمس؟»

فنهضت لتجد أمامها مارك ثورنتون يبتسم وبجواره توني.سألتهما وقد أحست بحرج وهما ينظران اليها في إعجاب:

«أتريدان آدم؟»

وغطت نفسها بمنشفة الاستحمام وهي تلحظ مارك يجلس فوق الرمل ويرد عليها قائلاً:

«ليس بصفة خاصة، جئنا في زيارة اجتماعية، اذ لم نركما منذ بعض الوقت أيها الطائران العاشقان. وهذه الجزيرة ليست خالية تماماً من السكان كما تعلمين.»

فابتسمت قائلة:

«ظللنا نمضي وقتاً طويلاً في ملجأ الطيور، فلقد فقست بيضتان، الثالثة لم تفقس، مما جعلنا نقلق على مصير الفرخ الثالث، واذا كان سيخرج الى الحياة.»

وسار الثلاثة في اتجاه البيت، ولم تكن تدري هل تغتبط أم تحزن عندما قال لها مارك انهما لن يتمكنا من شرب القهوة عندها هذا الصباح لكن ربما في وقت آخر.

وعندما أصبحت وحدها من جديد تساءلت هل شعرا أن شيئاً ما لا يسير على ما يرام، وأن هذا الزواج زائف، وأنه لم تعد هناك حتى صلة الصداقة التي كانت تربطها بآدم، وأنها عاجزة عن إنقاذ القليل الذي تبقى؟

في هذا المساء بذلت روبين محاولة جادة لجعل الحوار بينهما أكثر مرحاً، وأسرعت نحوه للترحيب به عندما سمعت صوت السيارة، ولاحظت أنه أخذ يتجاوب معها، ثم لاحظت القلق في عينيه، وبدأت ابتسامتها تتلاشى في قلق عما به، فقال لها وكأنه لم يسمع سؤالها:

«مات واحد من الطيور» ودلف الى داخل البيت عابراً أمامها.

«يبدو أن أحد الفرخين كان ضعيف البنية وأصابه بعد الظهر نوع من التشنج والاضطراب العنيف، فأسرع الأبوان بإزاحته خارج العش، فأخذ يرفرف ويعود الى السكون ثم يرفرف مرة أخرى قاوم في ضعف الى أن همد وسكنت حركته وفقد الحياة.»

وقالت له وقد أفزعتها حالة الحزن والأسى التي انتابته:

«هل كان في إمكانك أن تفعل شيئاً؟»

فضغط شفتيه وقال:

«مستحيل أن نفعل أي شيء بالقرب من هذا العش، تعرفين تلك الطيور فضلاً عما سوف تحدثه من جراح وإصابات عندما تهاجم، هناك مخاطرة هائلة بأن تهجر الموقع، ويتم القضاء على كل شيء.»

«كم تثير هذه الخواطر الفزع!»

وعضت شفتها، وأدركت أن هذا ليس بالوقت الملائم لمحاولة التقرب منه، وإيجاد جو من التفاهم بينهما وذهبت لاعداد طعام العشاء.

وتناول طعامه في صمت وذهنه مشغول، ثم اتجه الى مكتبه وبدأ في تدوين ملاحظاته، ونظرت اليه وعندما لاحظت أنه لم يبدأ في الكتابة قالت له مواسية:

«آدم، تناس ما حدث لبعض الوقت، وتعال نتمشى ناحية الشاطئ..»

فرفع كتفيه وهو يتنهد وقال:

«ليست لي رغبة في أن أتمشى، ويمكنك أن تتمشي وحدك إن شئت.»

فقالت بلهجة يائسة:

«ولكنني أريد التحدث إليك... أريد...»

فرد عليها بخشونة:

«لا... بل أفضل البقاء وحدي.»

فقالت له في برود:

«حسناً، ان كنت تريد هذا، فانني أوافقك.»

لم يكن من السهل منع أي نوع من الاتصال بين شخصين يقطنان معاً في مكان محدود كهذا المنزل، إلا أن عليها ألا تجعله يشعر بمدى استيائها من صده لها.

ومما ساهم في ذلك إضطراره لقضاء فترة من الوقت أطول من ذي قبل في ملجأ الطيور، كما أنها أحست باغتباط لأن تلك هي أول مرة يجري فيها تسجيل كامل بالصور والملاحظات المكتوبة لعملية ولادة تلك الطيور النادرة.

ودرجت روبين خلال الأيام التالية على أن تعامل آدم ببرود وبطريقة تخلو من روح الصداقة، ان لم تكن تجافي روح المودة الزوجية. «ولكنها ليست زوجته» قالت هذا لنفسها في مرارة، انها لا شيء بالمرة. فقدت شخصيتها في هذا المنفى الغريب خلال فترة الانتظار التي تمتد بها حتى موعد مجيء القارب التالي الى الجزيرة، وبعد ذلك... ورفضت السماح لأفكارها بأن تتكهن عما يمكنه أن يحدث بعد ذلك، أو تجيب على التساؤلات المؤلمة التي أثارها مثل هذا التفكير، ولكنها لا تستطيع أن تمنع عقلها من أن يشك في أن آدم يفضل تلك العلاقة الباردة التي نشأت بينهما برضاها المتبادل. والسؤال: الى متى تستمر تلك العلاقة؟

ولم يكن أمامها في وحدتها تلك سوى الالتجاء الى توني ليسرّي عنها. وأصبح شيئاً مألوفاً أن يسبحا سوياً، ثم يدخنا في استرخاء، ويعودا الى البيت لتناول القهوة في الشرفة وهما يستمعان أثناء ذلك الى الاسطوانات المعادة والأغنيات القديمة. وكان توني يصل أحياناً بعد الظهر تبعاً لظروف عمله،

ويسير البرنامج المعتاد كما هو سوى أن قهوة الصباح تحولت الى شاي بعد الظهر.

ومن الغريب أن تلك الصداقة لم يشبها أي عامل شخصي، من ناحية مشاعر روبين على الأقل، ولم تخف عن آدم زيارات توني لها، لكنه كان يقابل كلامها ببرود وبدون أن يعيرها إهتماماً، الى أن حلت إحدى الأمسيات حين خرج عن بروده وصمته.

وقف آدم يراقبها وهي تجفف شعرها تحت أشعة الشمس الغاربة في الشرفة، وعندما أمسكت بالمشط سألها في هدوء:

«أرجو أن تدركي ما تفعلينه.»

فسقط المشط من يدها، وانحنت لتلتقطه وهي تسأله وقد لاحظت تعبيراً معيناً في قسمات وجهه:

«ماذا تعني بهذا الكلام؟»

فرد عليها في تعمد:

«أعني أنه من الأفضل أن تبتعدي عن الفتى توني ستيفنز.»

فضاقت عيناها وأخذت تمشط شعرها في عصبية وقالت:

«هو يأتي اليّ، فماذا أفعل؟ هل أبلغه ألا يأتي الى البيت مرة أخرى؟»

فتنهد آدم وقال لها:

«الصبي مبتل في حياته، فماذا تتوقعين وأنت الفتاة الوحيدة في الجزيرة؟ أم أنك أصبحت على درجة شديدة من الافتقار الى الحس بحيث لا تدركين هذا؟»

فضحكت في تكلف وقالت:

«هذا أمر مثير للضحك، هل أنت غيور؟»

«أيتها الحمقاء الصغيرة!»

ونهض واقفاً وقد تملكته نوبة من الغضب الشديد، تفوق حالة الغضب التي استبدت به في تلك الليلة بعد عودتها من مأدبة العشاء في فيللا هودريك وقال لها:

«هل هذا هو كل ما يستطيع خيالك أن يجنح إليه؟»

«أي خيال، أنا أفكر ولا أتخيل.»

«أتعرفين ماذا يكون عليه حال رجال بلا نساء يعيشون محتجزين في جزيرة لعدة شهور، ثم تأتي من البحر فتاة صغيرة وتهبط في الجزيرة، ما السبب الذي تظنين أنني تزوجتك من أجله؟»

فنهضت واقفة، وراحت تنظر الى الومضات الحمراء الصادرة من المحيط وقالت:

«لم أعر هذا الأمر أي اهتمام.»

«إذاً حان الوقت الذي تبدئين التفكير فيه.»

قالها في خشونة ودلف أمامها بدون أن ينظر اليها، وأخذ يبتعد وهو في طريقه الى الشاطىء، مع الأشعة الأخيرة للشمس الغاربة.

وراح الشك يعتمل بسرعة في نفسها مما جعلها تحس بالذنب. هل انجذب توني اليها؟ بدت لها تلك الفكرة للحظة وكأنها فكرة بلهاء، فهو ما زال يحب فتاته التي هجرته، وهو يعلم أنها امرأة متزوجة، ولم يبد نحوها سوى الصداقة والاحترام انه ببساطة صغير السن ويحب للمرح... وهي أيضاً مثله. فلماذا لا تستمتع بصحبته؟ لقد بين لها آدم في وضوح أنه لا يريد صحبتها.

ترى ما الذي يريده آدم؟ أهو يريد العودة الى الوراء، الى كل ما كان يستحوذ عليه من قبل، والى الفتاة التي كتبت اليه تلك الرسالة التي تحتفظ بها روبين بين صفحات كتاب في الصندوق المجاور لمخدعها؟ يجب عليها أن تمزق تلك الرسالة، حتى لا يعثر عليها آدم بمحض الصدفة، ولكن هذا يبدو مستبعداً لأنه، على حد علمها، لم يدخل إطلاقاً تلك الغرفة التي كانت من قبل غرفته، كما أن الكتاب الذي وضعت فيه الرسالة عبارة عن رواية من كومة الروايات التي قرأها آدم، ولم تدر ماذا تفعل، من الواضح أن آدم يعتقد أن الرسالة ضاعت، لكنها ترددت في إحراق شيء من الأشياء التي تخص آدم،

أساساً. كما لا يبدو أن الحل هو قيامها بطي الرسالة في قبضتها وقذفها من الشرفة مثلما فعل آدم من قبل، اذ قد يعثر عليها شخص آخر..

ترى الى أي مدى أحب آدم ستيلا؟ كلا... الى أي مدى ما زال يحبها؟

وأغلقت روبين عينيها وهي تحاول أن تمنع ذهنها من تخيّل شكل تلك الفتاة التي لا تعرفها. أكانت شقراء أم سمراء؟ مديدة القامة أم قصيرة؟ وديعة أم مفعمة بالحيوية والنشاط؟ خجوله أم؟

وفجأة سمعت صوتاً يناديها ويقول:

«جرت العادة أن يخلع المرء حذاءه أولاً»

فتلفتت ناحية مصدر الصوت مرة وناحية قدميها اللتين وصلت اليهما المياه، ولاحظت أن توني يقترب منها وهي جالسة على رمال الشاطىء، فقالت له:

«كنت أحلم...»

وضحكت ونهضت لتبتعد عن مياه المد وخلعت خفيها.

وقال لها توني في تودد:

«افتقدتك هذا الصباح، هل قررت الذهاب لمشاهدة الطيور بدلاً من مصاحبتي؟»

«كلا.. قررت أن أمشي ناحية الطرف الآخر للجزيرة حتى أقطع وقت الفراغ.»

وسارت جنباً الى جنب مع توني وهي تنظر الى آثار قدميه فوق رمال الشاطىء. الأمر سيكون أصعب بكثير مما تصورت. فكيف لها أن تمتنع عن رؤية توني بدون أن تسبب له الآلام أو تذكر له الحقيقة؟

وقال لها توني:

«قلت إنك كنت تريدين الذهاب الى الطرف الشمالي للجزيرة، وكان في إمكاني أن أذهب بك الى هناك. ويمكن أخذ سيارة جيب لثلاثة أميال، ثم يسير المرء على قدميه لأن الطريق شديدة الوعورة هناك.»

وأطرق بضع لحظات ثم أضاف:

«علمت أن أحد الفرخين فقس تحيه، هل رأيته؟»

«كلا، رأيت فقط أول فرخ يفقس من البيضة.»

«وألا تشعر بشوق لرؤية تلك الطيور؟»

«ألم يتح لكم مشاهدتها حتى الآن؟»

فهز رأسه قائلاً:

«هذا المكان محظور على كل سكان الجزيرة عدا آدم... وأنت طبعاً.»

وتوقف ليقدم لها علبة سكائر وهو يقول إنه أحضر تلك العلبة لأنه يعلم ان ما لديها من سكائر بدأ ينفد. فشكرته بحرارة، وتأثرت بتفكيره الناضج، ودعته للتدخين وجلست فوق كومة من الرمال، وعندما أشعل القداحة أطفأها النسيم وأخفقت عدة محاولات في هذا السبيل مما جعلها تضحك، وشاركها هو الضحك، وعندما اقترب منها ليشعل لها سكارتها، لاحظت دفء نظراته اليها، فأسرعت بغض بصرها وسكتت ضحكاتها.

وأحس هو بالحرج فابتعد عنها قليلاً، وجلس متكئاً فوق أحد مرفقيه، وأطرق إطراقة أدركت كنهها ثم قال:

«الطريقة التي استوطنت بها هذه الجزيرة تدعو الى الدهشة، ولا بد أنها تطلبت منك قدراً من الشجاعة، فليس في هذا المكان محلات أو مخازن للسلع أو صالونات لتصفيف الشعر، وغير هذا من الأمور التي تهتم بها الفتيات. الرجال لا يشعرون بنقص كبير اذا حرموا من تلك الأشياء، ولكن الأمر يصبح مزعجاً إن حدث هذا بالنسبة الى النساء.»

وأطرق، ثم جذب نفساً من سيكارته وقال:

«من المؤكد أن آدم رجل محظوظ.»

وكانت روبين ترسم بعض الأشكال بأصابعها فوق الرمال وفجأة قامت لتنفض الرمال عن يديها وقالت له:

«ليس آدم محظوظاً تماماً كما تعلم.»

«آسف، لم أقصد هذا المعنى، انما كنت أعني...»

«أعلم هذا، هيّا بنا نتسابق حتى الخليج»

وأخذت تعدو وقد استبد بها مرح الشباب، وعادت بها الذكريات الى أيام طفولتها، وهي تعدو على شاطىء الجزيرة وتخيّلت أباها واقفاً أمامها يضحك ويلهث ويقرّ بفوزها. وفجأة زال عنها الوهم لأنها أدركت أن توني تخطاها وسبقها.

واقترحت عليه بعد ذلك أن يتسلقا الصخور، فأخذته الدهشة بسبب ذلك النشاط وتلك الحيوية التي تملأها، ولم يخف شعوره هذا، فردت عليه روبين بابتسامة. وبدأت في التسلق وهي تتحسس طريقها وسط الصخور الوعرة لهذا الأخدود العميق بدون أن تدري السبب الذي جعل تلك الطاقة من النشاط والحيوية تفوز بها فجأة، ولكنها أحست بأن عليها أن تصرف تلك الطاقة. وأخذت تواصل الصعود غير مكترثة بالتحذيرات المتكررة من توني الذي شعر بالقلق الشديد عليها، ولكم نبهها بأنها لا تستطيع الصعود لأكثر من هذا والا سقطت ودق عنقها. أخذت تتحداه، وتهلل كالأطفال كلما تغلبت على إحدى العقبات، الى أن جاءت لحظة أدركت فيها مدى صعوبة موقفها وأصبح النزول أشد خطورة، وراح توني يشجعها ويرشدها الى كيفية التصرف أثناء نزولها، وفجأة هوت إحدى الصخور تحت قدمها، فانزلقت وكادت تسقط لولا أن طوقها توني بذراعيه بقوة وهبط بها في أمان.

ولاحظت عندئذ مدى التعطش في عينيه، وفجأة اقترب منها وانقض عليها عنوة، وتمكنت من التخلص من ذراعيه بصعوبة بعدما طلبت منه ألاّ يكون أحمق وأن يتركها. وحاولت أن تسيطر على مشاعرها، وقالت له وهي تحاول تهدئة الموقف:

«أكنت تظن أنني كنت سأترك نفسي أتدحرج الى القاع لكي أضطر بعد ذلك الى التسلق من جديد؟»

وأشاح بوجهه عنها وقد أحس بالخزي والحرج الشديدين وقال لها:

«انني آسف، فما كان يجب أن أتصرف هكذا...»

«تناسى ما حدث، كانت مجرد هفوة، ومن الأفضل ألا نخرج سوياً للتنزه مرة أخرى، وإلا...»

وتوقفت عن الكلام لأنها لم تشأ أن تقول له انه من الأفضل أيضاً ألا يقضيا وقتاً طويلاً معاً في المستقبل.

«أعتقد أنني يجب أن أذهب للاغتسال وتغيير ملابسي.»

«أنا متفهم لهذا، وفي أي حال لن أحضر الى هنا ما لم أتلق دعوة.»

فأطرقت روبين هنيهة ثم ردت بسرعة:

«طبعاً سوف توجه اليك الدعوة أنت و مارك ، إننا نسعد برؤيتكما.»

وابتسمت ومدت يدها تصافحه لينصرف، فصافحها بسرعة واتجه الى المكان الذي أوقف فيه سيارة الجيب، وراقبته روبين وهو يبتعد وقد تملكتها أحاسيس مختلطة من العاطفة والأسف بسبب ما حدث ولأن تلك الصداقة اللطيفة التي استمتعت بها معه لا بد أن تنتهي من أجل مصلحة توني، إن لم يكن من أجل مصلحتها هي. فهي لا تحبه وهو لا يحبها، وانما الشباب والوحدة اجتمعا في ظروف معينة، ولكن من يتفهم ذلك؟

واتجهت الى المنزل وهي تتوجس خيفة، وفعلاً رأت آدم واقفاً في مدخل البيت، وعندما اقتربت دلف الى الداخل، فجرت قدميها في تثاقل واضطراب واتجهت الى غرفة الجلوس لتجده جالساً فنيهته... الى وجودها لكنه ردّ عليها في فتور، فروت له كيف أنها صعدت الصخور وأنها تدحرجت من فوقه، وصمتت برهة وأضافت قائلة أن توني أنقذها، فسألها في برود عن الفترة التي استغرقها هذا المشهد، فالتقطت أنفاسها وقالت له:

«لم يحدث أي مشهد، كنت هناك ورأيت بنفسك، أليس كذلك؟»

«كنت أخشى أن أصاب بالعمى وألا أرى ذلك المنظر المؤثر، إن عينيك لم تفارقاه الى أن ابتعد عن ناظريك، وأعتقد...»

فصاحت قائلة:

«ولكن الأمر لم يكن بهذه الصورة على الاطلاق.»

ولاحظت نظرات الاحتقار وعدم التصديق في عينيه ومضت تقول:

«إنك تعلم مدى وعورة الصخور، وظننت أنني قادرة على التسلق بمهارة، ولكنني وقعت في مأزق قبل أن أدرك...»

«قبل أن تدركي أين كنت أنا وأنني قد أظهر في ذلك المكان في لحظة.»

فنظرت إليه في هلع وقالت:

«حقاً!»

فرد عليها في برود:

«طبعاً، ولكن ما الذي تريدين مني أن أصدقه؟ ظللت تلتقين به بصفة مستمرة طوال الأسبوعين الماضيين، وأخذ هو يمضي كل لحظة من وقت فراغه هنا، وتتوقعين مني بعد ذلك أن أصدق بأنه ليس في الأمر أي شيء؟»

فتقدمت نحوه ومدت إليه يديها اللتين أصابتهما الرضوض مثلما أصابت ذراعيها الخدوش وقالت له:

«ألا يكفي هذا دليلاً على ما أقول؟ هذا هو ما حدث بالضبط وتصرف توني بشيء من الحماقة واعتذر عما بدر منه.»

فنظر اليها من قمة رأسها الى إخمص قدميها وقال وقد لوى فمه:

«أفضل أن أصدق ما شهدته بعيني، وأعتقد أنك توهمين نفسك بأنه يحبك. لماذا لا تعترفين بهذا في أمانة. طلبت من هذا الصغير أن يأخذك في جولة بالسيارة، واستمتعت بكل دقيقة فيها.»

فثارت مشاعر روبين وفقدت السيطرة على نفسها، وانفجرت قائلة:

«كلا، لم يحدث أن قمنا بأي جولة. ولكن حقاً... استمتعت بها، فعلى الأقل أتيح لي أن أريح أعصابي وأن أضحك وأتصرف كالبشر بصحبة توني ستيفنز الذي يعد من ألطف من التقيت بهم ومن أكثرهم استقامة. ولكنك لن تستطيع إدراك

مثل هذا وأنت ترتدي هذا القميص المصنوع من وبر الحيوان.»

وبدون أن تعبأ بالشرر المتطاير من عينيه راحت تضيف قائلة:

«إنك ترتدي قميصاً من الوبر بسبب ما فقدته، ولأن امرأة خانتك، قلت لي إنني هربت، وربما أكون قد فعلت هذا، ولكنني لم أدع الذي حدث يقتل أي ضحكة أو عاطفة إنسانية في نفسي، لم لا تكون صادقاً مع نفسك وتحدث تغييراً في حياتك؟ لم تتزوجني لكي تحميني أو لأي سبب آخر من تلك الأسباب العقلانية الباردة التي ذكرتها لي، وانما تزوجتني لارضاء أغراضك الملتوية، ولكي تنتقم مما فعلته هي بك.»

«اخرسي!»

وتقدم نحوها وهو يضغط قبضة يده في محاولة للسيطرة على نفسه، وأضاف قوله:

«أيتها الحمقاء الصغيرة، انك لا تعرفين معنى ما تقولين، إنك...»

«بل أعرف.»

ومدت ذقنها الى الأمام في كبرياء وفي إصرار على عدم التراجع عن موقفها وأضافت قولها:

«هل تعجب لاهتمامي بتوني ستيفنز؟ وماذا هنا غير هذا؟ من هنا غيره؟ إنه على الأقل شخص طبيعي وفيه حرارة وليس معقداً، وقلبه ينطوي على الحب لا المرارة، وهو ينظر اليّ كما لو كنت في عنفوان الشباب والحيوية، بل ينظر اليّ كامرأة.»

«أيتها الحمقاء العمياء الصغيرة!»

وهرب الدم منْ وجهه وهو في شدة التوتر حتى ظننت أنه سوف يضربها وأضاف قوله:

«تلك إذاً هي الطريقة التي تسير بها الأمور. المساعدة التي قدمتها لك، رغم حاجتك الماسة إليها، لم تكن كافية، ولم تكن الناحية الشكلية لتؤدي الغرض،

فأنت، مثل كل النساء، يدفعك الغرور الى السعي الاستحواذ على كل شيء، الاعجاب واظهار الحب لك حتى ولو كان يعوزه الاخلاص، إنك في حاجة الى أن تقدم لك عبارات الثناء والاعجاب جزاء قدرتك على إشباع رغبات الرجال الدنيئة.»

وأخذ شهيقاً عميقاً في برود ثم تحرك نحوها في إصرار وتجهم وهدوء أثار مخاوفها وقال:

«حسناً، ولم لا، فأنت مفعمة بالشباب والحيوية والدفء، وسوف أقدم بنفسي الثمن الذي تستحقه تلك الامكانيات التي تحظين بها، وهو الثمن الذي فاتني تقديمه من قبل فنحن متزوجان في كل حال.»

فتراجعت روبين الى الوراء وقد تملكها خوف مفاجىء، وأدركت أن الوقت فات فقد سدت عليها الطريق. وفتحت فمها ولكن لم تسعفها الكلمات ولم تستطع سوى رفع يدها المتجمدة لتحاول بها وقف تقدمه نحوها.

وابتسم في سخرية وهو يقول لها:

«حسناً ماذا تتوقعين. لست صبياً صغيراً حتى يمكن تهدئتي ووقفي بنظرة معينة اذا ما تخطيت الحدود، حذرتك، ولكن يبدو أنني لم أستطع أن أجعل المعنى الذي أقصده واضحاً لك، عندما يجتمع رجل وامرأة تحت سقف واحد فان التقاليد القديمة هي التي تسود.»

وراح يحتضنها ويضمها الى صدره بقوة، وهو يضيف قائلاً لها:

«ولكن يبدو أنك بسذاجتك، لم تدركي هذا، أم أن مداعبات ستيفنز الصبيانية كانت كافية لاشباع غرورك؟»

فثارت عندئذ وأخذت تكافح للتخلص من ذراعيه ولكن بدون جدوى وأخذت تقول له:

«كلا، هذا غير صحيح...»

واشتد تطويقه لها وقال:

«إنك أجمل مما كنت أظن، وكم كنت غبياً لأنني لم أظفر بك منذ البداية كانت لك رغبة في هذا، أليس كذلك؟»

وتوقف فجأة وتركها ودموعها تسيل على خديها وقد بللت شفتيه، وأخذ يحاول تهدئتها والتخفيف عنها وقال لها:

«بحق السماء، لا تبكي، فتلك ليست نهاية العالم.»

ولم ترد عليه أو تنظر اليه، وكانت دموعها المنهمرة هي الرد الوحيد، فأسرع بالخروج بحركة عصبية.

٨ ـ من اجل ايمانك

كانت تلك أطول ليلة في حياتها بالمقارنة طبعاً بتلك الليلة المفزعة التي عاشتها بعد وفاة أبيها. وفي ذلك الحين كان هناك أناس تفضي اليهم بما في نفسها ويخففون عنها، أما الآن فليس هناك من تستطيع أن تبثه لواعجها وأحزانها التي تكاد تمزقها. إنها تسائل نفسها: كيف يمكن لها أن تحب هذا الرجل، وأن تكرهه في آن واحد، في حين أن قلبها يصرخ طلبا لكلمة حب واحدة منه؟

كان الوقت متأخراً جداً عندما سمعت وقع قدميه، ولكن وقع الأقدام لم يكن سوى إشارة لوجود شخص آخر غيرها في المنزل يلفه السكون. وكانت تلك الليلة المظلمة التي غاب فيها القمر قد قاربت نهايتها عندما استسلمت أخيرا لنوم متقطع، استيقظت منه بعد أن عاشت حلماً مفزعاً. وبدأت تفيق وتحس بالسكون يخيّم على البيت وكأن النهار لم يطلع بعد. ولم تكن أصوات الطيور وضوء الشمس الذي ملأ الدنيا من حولها إلا لتزيد من إحساسها بالكآبة والفراغ بين جدران البيت. وتبين لها أنها أصبحت وحيدة مرة أخرى.

ودخلت غرفة الجلوس، وأدركت أن آدم تناول إفطاره ولكنه لم يتناول طعاماً كثيراً، وأعدت لنفسها فنجاناً من القهوة. اليوم مازال أمامها طويلاً وثقيلاً بساعاته، ولم تتحمل التفكير في الأيام والأسابيع التي ستمر قبل أن تتمكن من ترك هذا المكان.

انها لا تريد أن تمشي أو أن تسبح، وبعد ما حدث أمس لم تعد تكترث بمقابلة توني مرة أخرى، وخرجت تتجول أمام المنزل، وفجأة حلّق ميكي وحط فوق

كتفها، وأخذت تخاطبه بكلمات من تلك التي تقال للصغار وهي تحس بمخالبه وخفق جناحيه، ولكنه تركها وانصرف الى إحدى الأشجار عندما تبين له أنه لا أمل في انتظار وجبة طعام شهية.

وعندما حان وقت الغداء لم تكن قد قررت بعد ما اذا كانت تبقى في البيت كي يجدها آدم عند عودته، ولكن القرار كان قد خرج من يدها عندما اكتشفت أن آدم أعد لنفسه بعض الطعام وأخذه معه. فاستشاطت غضباً وخرجت من البيت لا تلوي على شيء، واستمرت في السير حتى تعبت قدماها وأصبحت الطريق غير صالحة للسير وكانت الشمس قد مالت الى المغيب فأسرعت بالعودة لتحس بأنها حبيسة في البيت، فآدم لديه على الأقل عمل يؤديه في ملجأ الطيور، أما هي فليس أمامها مكان تتجه اليه.

وعندما عاد أحست بحضوره، وأرادت أن تتحرك نحوه، ولكن عنادها منعها، وبدون مقدمات قال لها:

«آسف، تصرفت بطريقة بهيمية ليلة أمس.»

وتنهدت بطريقة تنمّ عما في نفسها من ألم، وقالت له وهي تعدّ الأطباق على المائدة انها هي أيضا تفوهت بكلمات غير لائقة، وهي تأسف لهذا، ولكنها قالت وهي في سورة الغضب لأن...لأن...

فجلس وقال لها انها ذكرت كل شيء بوضوح تام، وأن كلاً منهما أبلغ رسالته للآخر، ولاداعي لاثارة الموضوع مرة أخرى.

فجلست وهي تتجنب النظر اليه وقالت له:

«أتعني أنك سوف تتصرف في المستقبل بطريقة متحضرة؟»

فوعدها بذلك، وبدأ يتناول طعامه بدون أن ينمّ سلوكه عما في رأسه من أفكار، وبعد لحظات أبلغها بأن البيضة الأخيرة فقست وأنه استطاع أن يصوّر كل مراحل عملية الفقس. وكان واضحاً أن المسألة الأخرى أسدل عليها الستار ولكن كيف هذا؟ كيف يمكن لرجل أن يتصرف بعدم أكتراث على هذا النحو

بعد ساعات قلائل من تجربة عاطفية مثيرة خاضتها! لم تدرك قبل الآن مدى ما تنطوي عليه كلمات بايرون الشاعر الانكليزي الكبير عن الحب حين قال :

ان حب الرجل هو نسيج وحده، انه يعني كلّ وجود المرأة الا أن حب آدم لايبدو هكذا. فلا يوجد رجل يتصرّف بمثل هذا التأدب والبرود، مثلما يفعل آدم نحوها، لو كانت في قلبه شرارة واحدة من الحب، وخلال الأيام القلقة التي مرّت بعد ذلك أحست بأنه يتعمد ألا يحدث بينهما أي تلامس، ولكنها اعترفت بصراحة بينها وبين نفسها بأن ذراعيه أضرمتا فيها النار.

وأخذت أفكارها وعواطفها تتذبذب بين نقيض ونقيض، وتمنت لو أنها لم تر آدم أو تنزل الى شواطىء ألزيتا، فالجزيرة كالسجن... لقد تطلعت الى نيل حريتها ولكنها فقدت تلك الحرية في حياة الجحيم التي تحياها، وهي الحياة التي كان يمكن أن تصبح جنة مع حب رجل لها...

لم يجرؤ توني على الاقتراب منها منذ اليوم الذي كادت تلقي فيه حتفها، كما لم تستطع هي أن تخاطر بالخروج لمقابلته خشية تعرّضها لمزيد من الاذلال. وبعد مضي ثلاثة أيام على هذا الحادث جلست روبين في حالة من اللامبالاة تقلب في السجلات الخاصة بملجأ الطيور، وهي السجلات التي تحوي معلومات كثيرة عن عائلة الطيور التي لم يسمع عنها سوى القليل ويهتم بها سوى المتخصصين وفجأة ظهر هودريك وولف في زيارة غير متوقعة، وقال لها إنه أخذ يتساءل عن سبب احتجابها منذ فترة، وسألها وهي تقدم له القهوة اذا كان آدم رجلاً غير اجتماعي.

وقدم لها هدية أحضرها معه وهو يقول انه اعتقد أنها تحب الحصول عليها، وأزاحت الأوراق الخارجية التي تغلف الهدية لتفاجأ بأنها عبارة عن حافظة تحوي أربع اسطوانات احداها تلك الاسطوانة التي سبق أن رأتها في مكتبة هودريك، وهي تحتوي على تلك المقطوعة التي عزفها آدم، فأمسكت بها بيدين ترتعشان، وقدمت الشكر لهودريك وقالت له:

«أتمنى أن أسمعه يعزف من جديد ولكن...»

فهز هودريك رأسه تعبيراً عن إدراكه لما تقصده وقال لها انه اعتقد أن تلك الاسطوانات قد تكون محظورة ولكنها ربما تثق في كتمانه للسرّ ونظر اليها نظرة ذات معنى وأضاف:

«لا أود أن أكون سبباً في حدوث شقاق، ولكنني علمت بأنك حصلت على الفونوغراف الخاص بمحطة الرصد»

«وكيف علمت بهذا؟»

«رأى والدي توني وهو يحمله في سيارة الجيب، وتوقع أنه لابد أن يكون في طريقه اليك.»

وبعد أن انتهى هودريك من احتساء القهوة انصرف، وعادت وحيدة من جديد. وراودتها الرغبة في الاستماع الى تلك الاسطوانات ولكنها لم تجرؤ على هذا، فليس الوقت ملائماً، وحملت حافظة الاسطوانات لتخفيها وسط ملابسها كأنها مصممة تريد الاحتفاظ بها سراً.

ولزمت الصمت عندما رجع آدم لتناول الغداء، وأخذت تتصرف في فتور كالمعتاد، ولكن لولا انشغالها عندئذ بإعداد المائدة للاحظت شيئاً من الرقة في عينيه الرماديتين وهو يتتبعها ببصره، وقال لها:

«أعتقد أن زائراً قدم إلينا هذا الصباح»

فأصابها الذعر ولكنها ردت قائلة:

«ونعم، وذكر حاجتنا الى بعض الاختلاط بالناس»

وقال لها إنه توجه الى محطة الرصد لاحضار بعض السكاكر وقابل هودريك في طريق العودة، وعندئذ أحست روبين بالارتياح، فهودريك كتوم للسرّ كما يبدو، وسألها فجأة:

«أترغبين في الذهاب الى ملجأ الطيور بعد ظهر اليوم؟»

وجعلتها المفاجأة تتردد في الرد لحظات طويلة، فقال لها انه لا داعي لمجيئها

إن لم تكن راغبة في ذلك، فهو يعلم أن المكان هناك ضيق وغير مريح. واستادت عندئذ لطريقته في إلغاء زيارتها بدون أن يمنحها فرصة لتقول رأيها بالقبول أو الاعتذار بطريقة تحفظ لها ماء وجهها، فردت عليه في برود:

«أرغب في السباحة بعد ظهر اليوم.»

«ولكن لا تفعلي ذلك بعد طعام الغداء مباشرة.»

فقالت وهي تضع الأطباق في وعاء الغسل وتصب فوقها بعضاً من مادة منظفة:

«كلا. سآخذ معي كتاباً لأقرأ منه فصلين قبل السباحة.»

وبدلاً من أن يعد نفسه للخروج لاحظت أنه أخذ يساعدها في تجفيف الأطباق، مما جعلها في حيرة من أمره، وفجأة قال لها:

«سأذهب للسباحة معك قبل أن أعود الى ملجأ الطيور.»

وأحست عندئذ بأن الأمور أصبحت مشوشة من حولها، فصاحت صيحة احتجاج مكتومة في داخلها. انها لاتستطيع احتمال تلك الصداقة الفاترة، والأفضل لها استمرار المعاملة الباردة بدلاً من الصداقة المتأدبة، ففي داخله يكمن شخص عطوف كريم، وهي لا يمكنها أن تصمد في دفاعها وتتمسك بمسلك اللامبالاة نحوه. فردت عليه وهي تتعمد الظهور بمظهر عدم الاكتراث:

«حسناً. سيكون هذا تغييراً.»

وأخذت تعد الأشياء اللازمة للسباحة، وعندما وصلا الى الشاطىء، سألها:

«أين الكتاب؟»

«أوه... نسيته، لايهم.»

وتمددت على صدرها فوق الرمال وأخذت ترقب الأمواج التي يعلوها الزبد الأبيض وهي تتدافع واحدة وراء أخرى نحو الشاطىء. وراحت تتساءل إذا كان آدم جاء معها لأنه يشك فيها؟ وهل أعتقد أنها تجري مقابلات سرية عاطفية مع توني؟ وهل مازال لا يصدق ماروته له عن ذلك المنظر المضلل الذي رآه؟

وتحركت قليلاً وهي تنظر خلسة الى آدم الذي استلقى في هدوء وقد أغمض عينيه. ونصحها بألا تتعجل النزول الى الماء فأطاعته. وطلب منها أن تشعل له سيكارة فأطاعته، وأشعلت لنفسها سيكارة، ثم قال لها إنه حان الوقت لكي يقيما حفل عشاء، وأضاف يقول:

«اذا لم تفعل فسوف يظنون أنني حولتك الى ناسك.»

«وهل يهمك مايقولون؟»

«ليس بالضبط.. وهل يهمك أنت؟»

وأطفأ السيكارة في الرمل ونهض واقفاً فسألته بدورها قائلة:

«وهل يهم إن فعلت؟»

وقبل أن يتاح له الرد كان قد نزل الى الماء ونزلت خلفه. انها تستريح للسباحة مع آدم أكثر من السباحة مع توني الذي يميل للعبث، ويثير رذاذاً شديداً حوله، في حين أن آدم مثلها يراعي القواعد الصحية السليمة للسباحة، وخرجا من الماء، وراحت تجفف شعرها. فطلب منها ألا ترهق نفسها وردت عليه بأنها لن تنزل الى الماء مرة ثانية. والتقط منشفة الاستحمام، وأخذ يجفف نفسه بحركة مفاجئة لم تتوقعها، فابتعدت بحركة تلقائية جعلته يتراجع الى الوراء بسرعة، وسقطت المنشفة من يده وقال لها:

«لم أكن أرغب في أن ألمسك.»

«كلا انني لم أقصد... انك...»

«فهمت جيداً، ووفري على نفسك الشرح.»

ولبس خفيه ووضع قميصه فوق كتفيه وانطلق سائراً في طريق الشاطىء قبل أن تدرك هي مايحدث أمامها. وخلال الفترة التي أمضتها في تجفيف نفسها والذهاب الى المنزل كان هو قد وصل الى ملجأ الطيور وكانت مشاعر الاستياء والغضب وراء اندفاعها للعودة بسرعة الى البيت، ودلفت الى غرفة الجلوس تتنهد في ألم وتتساءل عما دفعه الى أن يتزوجها؟ وماذا يريد منها؟ انه لا يريد الآن لا

إن لم تكن راغبة في ذلك، فهو يعلم أن المكان هناك ضيق وغير مريح. واستعادت عندئذ لطريقته في إلغاء زيارتها بدون أن يمنحها فرصة لتقول رأيها بالقبول أو الاعتذار بطريقة تحفظ لها ماء وجهها، فردت عليه في برود:

«أرغب في السباحة بعد ظهر اليوم.»

«ولكن لا تفعلي ذلك بعد طعام الغداء مباشرة.»

فقالت وهي تضع الأطباق في وعاء الغسل وتصب فوقها بعضاً من مادة منظفة:

«كلا، سآخذ معي كتاباً لأقرأ منه فصلين قبل السباحة.»

وبدلاً من أن يعد نفسه للخروج لاحظت أنه أخذ يساعدها في تجفيف الأطباق، مما جعلها في حيرة من أمره، وفجأة قال لها:

«سأذهب للسباحة معك قبل أن أعود الى ملجأ الطيور.»

وأحست عندئذ بأن الأمور أصبحت مشوشة من حولها، فصاحت صيحة احتجاج مكتومة في داخلها. انها لاتستطيع احتمال تلك الصداقة الفاترة، والأفضل لها استمرار المعاملة الباردة بدلاً من الصداقة المتذبذبة، ففي داخله يكمن شخص عطوف كريم، وهي لا يمكنها أن تصمد في دفاعها وتتمسك بمسلك اللامبالاة نحوه. فردت عليه وهي تتعمد الظهور بمظهر عدم الاكتراث:

«حسناً، سيكون هذا تغييراً.»

وأخذت تعد الأشياء اللازمة للسباحة، وعندما وصلا الى الشاطىء، سألها:

«أين الكتاب؟»

«أوه... نسيته، لايهم.»

وتمددت على صدرها فوق الرمال وأخذت ترقب الأمواج التي يعلوها الزبد الأبيض وهي تتدافع واحدة وراء أخرى نحو الشاطىء. وراحت تتساءل إذا كان آدم جاء معها لأنه يشك فيها؟ وهل أعتقد أنها تجري مقابلات سرية عاطفية مع توني؟ وهل مازال لا يصدق ماروته له عن ذلك المنظر المضلل الذي رآه؟

وتحركت قليلاً وهي تنظر خلسة الى آدم الذي استلقى في هدوء وقد أغمض عينيه. ونصحها بألا تتعجل النزول الى الماء فأطاعته، وطلب منها أن تشعل له سيكارة فأطاعته، وأشعلت لنفسها سيكارة، ثم قال لها إنه حان الوقت لكي يقيما حفل عشاء، وأضاف يقول:

«اذا لم نفعل فسوف يظنون أنني حولتك الى ناسك.»

«وهل يهمك مايقولون؟»

«ليس بالضبط.. وهل يهمك أنت؟»

وأطفأ السيكارة في الرمل ونهض واقفاً فسألته بدورها قائلة:

«وهل يهم إن فعلت؟»

وقبل أن يتاح له الرد كان قد نزل الى الماء ونزلت خلفه. انها تستريح للسباحة مع آدم أكثر من السباحة مع توني الذي يميل للعبث، ويثير رذاذاً شديداً حوله، في حين أن آدم مثلها يراعي القواعد الصحية السليمة للسباحة. وخرجا من الماء، وراحت تجفف شعرها، فطلب منها ألا ترهق نفسها وردت عليه بأنها لن تنزل الى الماء مرة ثانية. والتقط منشفة الاستحمام، وأخذ يجفف نفسه بحركة مفاجئة لم تتوقعها، فابتعدت بحركة تلقائية جعلته يتراجع الى الوراء بسرعة، وسقطت المنشفة من يده وقال لها:

«لم أكن أرغب في أن ألمسك.»

«كلا انني لم أقصد... انك...»

«فهمت جيداً، وفري على نفسك الشرح.»

ولبس خفيه ووضع قميصه فوق كتفيه وانطلق سائراً في طريق الشاطىء، قبل أن تدرك هي مايحدث أمامها. وخلال الفترة التي أمضتها في تجفيف نفسها والذهاب الى المنزل كان هو قد وصل الى ملجأ الطيور وكانت مشاعر الاستياء والغضب وراء اندفاعها للعودة بسرعة الى البيت، ودلفت الى غرفة الجلوس تتنهد في ألم وتتساءل عما دفعه الى أن يتزوجها؟ وماذا يريد منها؟ انه لا يريد الآن لا

الحب ولا حتى الصحية. كانت تعتقد أنه يمرّ بفترة انتقالية، وأنها تؤدي دور الجسر الذي يحتاجه للانتقال من حال الى حال، ولكنها للآن أخفقت الى حدّ ما في هذا.

وأخذت حماماً، وغيرّت ملابسها، ونشرت المنشفتين في الشرفة لكي تجفا. الشيء الذي تأكدت منه الآن هو أنها لا تستطيع أن تعيش على حافة هذا البركان العاطفي، وهي لا تدري الى أين سينتهي بها هذا الوضع.

ترى ما هو مفتاح اللغز الذي يمثله آدم فاند؟ وأخرجت الاسطوانات من مخبأها ووضعتها فوق السرير وراحت تتفحصها. وأخذت المرارة التي ملأت قلبها تهدأ تدريجياً، فهنا مفتاح مشاعر المرارة والغضب التي تستبد بآدم، الا أنه هو الذي يحتفظ بالرد، لن يعرف طعم الراحة الى أن يحاول ويخاطر بتعريض نفسه للفشل، ولكن كيف يمكن اغراؤه ليفعل هذا؟ الآخرون لابدّ أن يكونوا قد بذلوا المحاولات معه، أولئك المقربون اليه: أمه وأصدقاؤه، وهذا لاشك فيه. تلك الفتاة التي أحبها وهي ستيلا، فان كانت ستيلا قد أخفقت فكيف يمكن لروبين أن تنجح؟

ونحت جانباً اسطوانة الامبراطور لبيتهوفن، ففيها قوة شديدة لاتتلاءم مع مزاجها في هذا الوقت، كما أنها ترددت أمام الاسطوانة العاطفية التي تحمل اسم بالاديس لشوبان، ثم أخرجت الاسطوانة التي تحوي كونسرتو رخمانينوف من عزف آدم فاند، إنها من أعظم المقطوعات لأنها تخاطب القلب أولاً. وأدارت تلك الأسطوانة وراحت تسبح بخيالها مع أنغامها العذبة حتى نسيت ما حولها، ولم تسمع الطرق على الباب أو النداء، مما إضطره لأن يدخل قفزاً من النافذة، ووجدته فجأة أمامها وهو في سورة الغضب. ففهمت ماينتويه وصاحت فيه:

«كلا، لاتفعل، ستحطمها...»

وأخذت تحاول تخليص الاسطوانة من بين أصابعه، وهو يقول لها، وقد هرب الدم من عروقه من شدة الغضب:

«من أين حصلت عليها؟ عليك اللعنة، كيف تجرؤين، وكيف يجرؤ وولف؟ انه...»

واستمرت في محاولاتها لانتزاع الاسطوانة وهي تقول له:

«لا يمكنك أن تفعل هذا، انها أنت، انها...»

وأثناء ذلك اصطدم أحد مرفقيه بعينها بكل قوة فصاحت من الألم، انزعج آدم وقال:

«ياإلهي، ماذا فعلت؟ دعيني أرى عينيك، انني آسف ياصغيرتي.»

وكانت الاسطوانة قد سقطت على الأرض، فصاحت فيه بشدة لئلا يقف فوقها، وراحت تبحث عن شيء تجفف به الدمع المنهمر من عينها المصابة. وأحست بذراعيه تلتفان حول كتفيها، واختفى كل مالديه من غضب، وأخذ يتفحص عينها ويقول لها:

«روبين... أرجوك أن تكفي عن البكاء، لم أقصد ايذاءك، انني...»

«أعرف هذا، كانت غلطتي أيضاً، وكان يجب عليّ أن... هل الاسطوانة سليمة؟»

«أوه، ملعونة هذه الاسطوانة، هل أصابتك شديدة؟ انك تعلمين أنني لم أتعمد ايذاءك.»

ورفع ذقنها الى أعلى وهو يحدق في وجهها بعينين يملأهما القلق، وأخذ يجفف في رقة دموعها المنهمرة وانهارت مقاومتها وقالت:

«أوه...آدم!»

ودفنت نفسها بين ذراعيه وقد تهاوت كل مقاومتها أمام العاطفة الجياشة، وراح يحتضنها بقوة أشد، وقد أسندت رأسها الى كتفه، الى أن هدأت المشاعر الملتهبة، ورفعها عن صدره في رقة لتنظر اليه وراح يسألها:

«هل إصابتك سيئة؟»

فهزت رأسها بحركة بطيئة، ولكنها مالت في ضعف على صدره مما جعله يدرك خطورة حالتها، فاكتسبت ملامحه بعض الرقة وأخذ يلمسها في رفق، وأحست

بأنفاسه وبذراعيه تلتفان حول وسطها الذي بدا لها كأنه قد تشكل ليلائم ذراعيه وراحت عينيه تتوسلان ودقات قلبه تتناغم مع دقات قلبها في انسجام.

اخذا يحسان تدريجياً بالجو المحيط بهما، بالطيور العائدة الى أعشاشها مع الشمس الغاربة، وصوت موجات المد ونسيم الغروب البارد:

«هل أنت سعيدة ياصغيرتي؟»

«...وهل أنت سعيد؟»

«جداً، انك لطفلة مليئة بالعواطف الجياشة.»

«لاتصفني بأنني طفلة.»

«اذاً فأنت امرأة مليئة بالعواطف، رغم أنك تبدين كطفلة صغيرة بين ذراعي... الى أين أنت ذاهبة؟»

«لأنقذ تلك الاسطوانة.»

«عليك بنسيانها.»

ولكنها أخذت الاسطوانة ووضعتها في الفونوغراف وقامت بتشغيله، ووقفت تنتظر صوت الموسيقى الذي ملأ المكان، ودقات قلبها تتزايد وهي تنظر الى آدم. ولم يتفوه بكلمة وانما مد ذراعيه اليها، فصاحت وهي تسرع نحوه وترتمي بين أحضانه.

وأخذت تشجعه وتقول له إن عليه بدلاً من تدمير الاسطوانة أن يصنع المزيد من الاسطوانات، مما هو أفضل من تلك الاسطوانة، فقال لها وهو يرمقها:

«وهل يمكنني ذلك، من قال هذا؟»

«أنا أقول هذا.»

وأخذت شهيقاً عميقاً ولم تتردد، لأنها أدركت أن تلك هي الفرصة المناسبة التي قد لا تتكرر وأضافت تقول:

«ولم لا تحاول؟»

«انها ليست بالسهولة التي تظنينها.»

«أعلم هذا، ولكن لابد من المحاولة.»

وطبعت قبلة على خده وهي تقول:

«آدم، أنا أحبك... وهذه هي الطريقة التي أعبّر لك بها.»

«حقاً؟»

ورد القبلة بمثلها فقالت له رداً على سؤاله:

«الى أبعد الحدود.»

وضحك في رقة وهو يقول:

«بهذه السرعة؟ ولكن ماشأن هذا بقدرتي على استئناف عملي ومهنتي؟»

«لأنني أعرف ماتشعر أنت به، العقبة هي خوفك ألا تجيد، انك تبحث عن الكمال وحده وتريد أن تمنحه، ولكن هذا سوف يتحقق إن أنت حاولت، وستكون أعظم من ذي قبل لأنك عانيت من أجله.»

ومضت تقول في حماسة شديدة:

«الايمان يحرك الجبال ويحقق أي شيء، فهل تتمسك يا آدم بالايمان؟ عدني بهذا أرجوك.»

وكانت الغرفة ساكنة وهي تنتظر رده، ثم تنهدت وسمعته يقول لها:

«حسناً سأحاول من أجلك ومن أجل إيمانك.»

٩ ـ السلّم الموسيقي

لم يتزعزع إيمان روبين على الاطلاق خلال الأسابيع التالية، وهي الأسابيع التي عاشتها في قمة السعادة، وبرغم أن آدم كان يبدو عليه مظهر الحذر الغامض، وهو ما لوحظ عليه صباح اليوم الذي توجها فيه الى فيللا هودريك بالسيارة، عندما طلبت روبين من هودريك مفتاح البيانو. ورد عليها هودريك عندئذ في دهشة كأنه لم يكن يتوقع مثل هذا الطلب قائلاً:

«ولكنه لم يكن مقفلاً في أي وقت من الأوقات، وأنت تعلمين هذا...هل قررت التدرب على عزف تلك الافتتاحية التي علاها بعض الصدأ؟»

ولم تنجح روبين في إخفاء مدى سعادتها ورغبتها في أن تغني للعالم كله في ابتهاج، فردت عليه في رقة:

«سوف يتولى آدم مهمة ازالة الصدأ هذه نيابة عني.»

ولم يغب عن هودريك المعنى الذي تقصده، فصاح مبتهجاً وأمسك بيدي آدم محيياً إياه، ونادى والدو لاحضار المشروبات، وقال انهما لو أبلغاه مقدماً كان كلّف والدو بضبط درجة النغم في البيانو، ولكنه سيفعل ذلك رغم هذا.

وأبدت روبين تشككها في رحلة صيد السمك التي تمّ الاعداد للقيام بها هذا الصباح، ولكن هودريك أكد لها ان هذه الرحلة تتم عادة بالقارب خاص، وقال انه قد يواتيها الحظ فتصطاد سمكة طيبة مما سيغتبط له زوجها.

فقال آدم في جفاف:

«سأغتبط فعلاً.»

وأدركت روبين أن آدم يشعر بالمؤامرة التي حيكت لتركه بمفرده حتى يقوم بالتجارب الأولى الحيوية التي يتوقف عليها الشيء الكثير.

وراحت تتساءل بينها وبين نفسها في قلق عما اذا كانت يداه سوف تتجاوبان، أم أنها سترجع من تلك الرحلة لتجد رجلاً متقلب المزاج خاب أمله، وأصبح في حالة أشدّ مرارة من ذي قبل؟ ظل هذا السؤال يراودها طوال الجولة البحرية التي استغرقت ساعتين في القارب ان آدم يجب أن يعود للعزف من جديد، وهو إن كان غير قادر على تحقيق المستوى المطلوب من الكمال الذي حدده بنفسه ليستطيع إحياء الحفلات الموسيقية. كيف يمكن تحقيق هذا؟ انها لا تدري ولكن لا بد من إيجاد جواب لهذا السؤال.

ورغم تنبؤات هودريك لم تنجح في اصطياد شيء، في حين تمكن هودريك، وهو ما أدهشه هو نفسه، من اصطياد سمكة متوحشة فأشاع جو الفرح بين رفاق الرحلة. وقاد القارب بعد ذلك في طريق العودة، وما أن وصلت روبين هي وهودريك الى الفيللا حتى انتابتها حالة من الصمت المشوب بالقلق، لأنهما لم يسمعا صوت البيانو، ترى هل ما زال آدم في الفيللا؟ وهل تمكن من...؟ وأخذت تبلل شفتيها وهي تتحرك الى الداخل.

كان آدم واقفاً أمام النافذة وظهره نحوها، وعندما نادته في قلق رد عليها بدون أن يتحرك:

«لا توجهي اليّ الآن أي أسئلة.»

والتقطت أنفاسها وهي ترقب وجهه الشاحب، وعندما التقت عيناه بعينيها لاحظت ابتسامته المصطنعة المشوبة بالتوتر، فسألته:

«لم تخفق أمام البيانو في أي حال.»

فأمسك بيدها وضغط عليها بطريقة مطمئنة، وتركها لكي يحيي هودريك.

وقالت روبين لنفسها انه لو كانت نتيجة تلك التجربة محزنة لما بقي في انتظار عودتها، ولكان رد فعل آدم مختلفاً. والى جانب هذا مرّت ستة أشهر منذ

إصابته، مما جعله يبتعد عن التدرّب طوال هذه الفترة، حتى لو لم يكن قد أصيب، فابتعاده هذا خسارة كبيرة. سوف يتعين عليها أن تتحلى بالصبر، ولكن هل يصبر آدم أيضاً؟

وأصرّ هودريك على بقائها لتناول طعام الغداء، ولكن آدم اعتذر لأنه لا يجب إهمال ملجأ الطيور، وتم الاتفاق على أن يتدرب آدم كل صباح على العزف بينما تعتني روبين أثناء ذلك بعملية تسجيل الملاحظات والتقاط الصور في ملجأ الطيور، وفي أي حال أوشك السجل أن يكتمل ولم يتبق سوى تدوين القليل من الملاحظات، سيكون الكثير منها بمثابة تكرار للملاحظات التي تمّ تدوينها فعلاً.

وعندما عادا الى البيت دلفت روبين الى الداخل وأحضرت آلة التصوير، وعادت تتخذ مكانها من جديد في سيارة الجيب.

فسألها آدم:

«هل أنت قادمة معي؟»

«طبعاً، هل هناك اعتراض؟»

قالتها في تدلل وحب، فرد عليها بجفاف:

«ليس الآن، ولكني قد أعترض فيما بعد، فأنني كما تعلمين، لا أفتقر الى القدرة على تخيل ما قد يحدث.»

فردت عليه وهي تنظر الى الطريق التي إنطلقت فيها السيارة:

«أوه، لم أكن أعلم أنك من الطراز المغرق في الخيال.»

«هناك أشياء كثيرة لا تعرفينها عني، وآمل ألا تؤدي هذه الأشياء، عندما تعرفينها، الى تحطيم الكثير من أوهامك.»

وبعد إطراقة سألته:

«أحقاً سيحدث هذا؟»

«سيتوقف هذا على مدى الأوهام التي تنتابك، بدأت أدرك أن النتائج التي

توصلت اليها في البداية لم تكن دقيقة تماماً.»

فسألته في دهشة:

«أية نتائج تقصد؟»

«انها تتعلق بك أنت!»

ووصلت السيارة الى الملجأ، وعندما دخلا وبدأ آدم يضبط آلة التصوير، أخذت روبين تستعيد بعض كلماته وتفكر في معناها، ولكنها أدركت أنها تحتاج الى بعض التفسير فسألته:

«ما الذي تقصده بالنتائج غير الدقيقة التي توصلت اليها فيما يتعلق بي؟»

فلوى شفتيه قائلاً:

«أعتقد أنني أخطأت مرتين، أخذت عنك انطباعاً أولياً خاطئاً عندما التقطتك عن الشاطىء تلك الليلة، وعندما عرفت قصتك فيما بعد ظللت أميل الى الاعتقاد بأنك فاسدة ومريضة نفسياً وأنانية، وأخيراً أدركت مدى ما تتصفين به من إنكار للذات وكرم شديدين.»

وفوجئت روبين بصراحته، وقالت له هي أيضاً في صراحة مندفعة:

«ولكنني لم أكن هكذا دائماً، كانت لي بعض جوانب الطيش وغير ذلك من الأمور المشابهة.»

«هكذا الشباب عادة، ولكن الحياة سرعان ما تعبس، ولهذا فان الشباب يجب أن يكتشف ويبحث ويأخذ قبل أن تأتي الأحزان وتزول الأوهام، ولكن هناك شيء يقلقني.»

فتوجست روبين خيفة، وسألته اذا كان يقصد ما يتعلق بنتيجة تجربته الأولى أمام البيانو، فقال لها:

«أتحدث عنك أنت... قولي لي يا روبين كم تحبينني، وكم تحبين آدم قائد الذي لا تعرفينه بالمرة؟»

«وكيف لي ألا أعرفك، أو أن أفصل بينك وبين قائد؟ لا أفهم ما تقصده.»

«حقاً؟ ربما بدا ما سأقوله لك كأنه نوع من الغرور، عرفت أنك لا تعرفين الجانب الآخر من شخصيتي... انني أكون كالأعمى والمرائي ان أنا تظاهرت بأن فاند هو مجرد اسم وليس إمتداداً لي. فأنا باعتباري آدم فاند أتلقى الكثير من الاعجاب والتقدير، وهناك الكثيرات من الفتيات من بين جمهوري تتملكهن حالة عبادة البطل في نظراتهن الي، كما ترسم صورتي فوق أحزمة الراقصين. أما آدم غرانت فان قصته تختلف كثيراً.»

فقالت له وهي تداعبه:

«وكم من القلوب حطمت؟»

«لا شيء على ما أعتقد.»

«بل أراهن عشرات القلوب، فعازف البيانو العظيم يجب أن يكون مديد القامة ووسيماً مغتراً بنفسه وفي سن الرجولة، لا مسناً بديناً سريع الغضب.»

فابتسم ولكن بغير ابتهاج وسألها:

«ولكن أي من تلك الصفات يجتذبك أنت؟ هذا هو ما يقلقني.»

«أتعني أنني تنتابني حالة الرغبة في عبادة البطل تجاه فاند. ولكن هناك حقيقة نسيتها يا سيد غرانت، فأنا لم أتزوج فاند.»

فأطرق قليلاً ثم قال لها:

«أعلم، ولكنني أود أن أكون صريحاً معك.»

«وأنا كذلك، ألا تعتقد أن عبادة البطل لا مكان لها في جزيرة صغيرة، ليس فيها عقل يعرف أو عين ترى أو شخص يضع حزاماً عليه صورة البطل، أو الشخص الوحيد الذي يشار اليه بالبنان؟ أوه يا آدم...»

وأسندت رأسها على كتفه وتنهدت قائلة:

«أنا فعلاً أشعر بعبادة البطل نحو فاند، ولكنني أحبك...»

ومرت فترة طويلة قبل أن يبعدها عنه في حزم ويقول في تهكم:

«هذا ما كنت أقصده عندما تحدثت اليك عن قدرتي على تخيل ما قد يحدث.»

«وهل هناك عيب في التخيل؟»

«كلا، لكن لدي عمل يجب أن أؤديه هنا، ولا يمكنني أن أؤدي عملاً وأطارحك الغرام في آن واحد.»

فتظاهرت بأنها لم تسمع ملاحظته وقالت له:

«لم يسبق لك أن شرحت لي كيف جئت الى هذه الجزيرة.»

«السير جوزيف هاغل أحد العلماء في «جمعية أبحاث الطيور» صديق قديم لأمي، وقد علمت الجمعية أن طائر الفرتوق شوهد هنا في هذه الجزيرة، فقررت ارسال شخص لاجراء مسح عن تلك الطيور، وكان ذلك عندما وقع لي الحادث، ورأى السير جوزيف أن هذا يتيح لي قضاء فترة النقاهة بصورة ملائمة.»

وتردد قليلاً ثم أضاف قوله:

«كنت أعتزم أن أفعل أشياء أخرى، وأقضي شهرين في جزر الرأس الأخضر حيث كان أحد أصدقائي يملك فيللا، وكانت ستيللا سترافقني بعد زواجنا، الا أنها قررت في آخر لحظة ضرورة تأجيل الزواج. وقد جعلني هذا في أشد حالات الغضب، مما جعلها ترجىء إبلاغي بحقيقة نواياها الى ما بعد رحيلي، فقد وصلني خطابها الذي تبلغني فيه بفسخ خطبتنا قبل يوم من وصولك الى الجزيرة.»

ولم يكن لدى روبين ما تقوله تعقيباً على هذا، فتنهدت وأخذت تمرر أصابعها في حنان فوق يده، ولكنها كانت تحس بالسعادة لأنه أفضى اليها بأسراره، وهو ما شجعها على أن تطرح السؤال الذي يشغل بالها منذ مغادرتها فيللا هودريك، وأخذت نفساً عميقاً وقالت في بطء:

«آدم، أرجوك ألا تعود الى حالة البرود واللامبالاة التي كنت فيها من قبل، ولكن الأمر يهمني جداً، هل لمست البيانو صباح اليوم؟»

«نعم.»

«وماذا عزفت؟»

«السلم الموسيقي.»

«السلم الموسيقي فقط؟»

«نعم.»

وضغط قليلاً على يدها قبل أن يعود للامساك بالمنظار لكي يضبط العدسة، وأضاف قوله:

«وسأظل أعزف السلم الموسيقي غداً وبعد غد وبعد بعد غد و...»

وتنهدت ثم سألته:

«ومتى تعزف ألحاناً؟»

«ربما عما قريب، وربما فيما بعد، الأمر متروك للظروف.»

واحتضنها فجأة بقوة وأضاف قوله:

«عليك أن تتحلي بالصبر في انتظار اليوم الذي أتطلع أنا أيضاً إليه.»

«ومتى سيأتي هذا اليوم؟»

فعانقها وتركها قائلاً:

«إنه اليوم الذي أطلب منك فيه عدم ترك الغرفة أثناء قيامي بالعزف.
روبين يجب أن تقتنعي بهذا وأن تتحلي بالصبر.»

ومرّ أسبوعان قبل أن يطلب آدم من روبين أن تبقى وهي تهم بتركه وحده مع البيانو، ووقفت تتطلع من النافذة في توتر وترقب هودريك و والدو وهما يتجولان في حديقة الفيلا، والشمس تملأ المكان والنسيم يداعبها، وراقبت آدم وهو يجلس على مقعد البيانو، ولم يتحرك لبضع لحظات، ثم أخذ يحرك أصابعه ورفع يديه وهوى بهما فوق مفاتيح البيانو. لم يعد هناك سلم موسيقي الآن، وانما أخذت الألحان العذبة التي تأخذ بمجامع القلب تنساب، وكأنها تؤدي خصيصاً من أجل روبين وحدها، وبدا لها كأن الزمان والمكان لم يعد لهما وجود، ولم يعد هناك سوى الموسيقى التي تملك عليها حواسها وتنساب الى كل خلية منها. «آدم أصبح يعزف من جديد» قالت هذه العبارة بدون أن يصدر عنها أي صوت... وانتهى آدم من العزف وأمال يديه الى جانبيه قائلاً لها:

«كانت هذه مهداة إليك.»

«أوه... آدم...»

وارتمت بين أحضانه وعيناها مغرورقتان بالدموع، ولا تملك الكلمات التي تعبر بها عن مدى سعادتها، واحتضنها برفق وهو صامت مثلها الى أن سمعا صوت سعال للتنبيه والاعتذار قادماً من اتجاه النافذة وقال هودريك بجفاف:

«حسناً... هل مسموح لنا أن نصفق ابتهاجاً؟»

فنهض آدم واقفاً وهو يقول:

«ليس بعد.»

فصاح هودريك المسن:

«ولكن كان هذا رائعاً، هل تسمح لي على الأقل أن أهنئك؟»

فهز آدم رأسه قائلاً:

«كان هذا أفضل مما كنت أظن.»

فهمست روبين قائلة:

«كان حقاً رائعاً.»

فابتسم في ضعف وقال لها:

«لم يكن كذلك يا صغيرتي، فما زال العزف فيه بعض التوتر.»

ومدّ أصابع يده اليمنى وراح يثنيها عدة مرات وأضاف قوله:

«ولكن التوتر خف بعض الشيء منذ يوم أو نحو ذلك.»

وقال هودريك:

«ربما يفيدك التدليك.»

«ربما.»

ونظر آدم الى روبين وتفوه بالرد الذي كانت تتوق اليه وقال:

«أعتقد أن في إمكاني أن أعود للعزف من جديد.»

وتحدث هودريك فقال:

«سوف تفتقدكما بكل تأكيد، وستعود أزينا الى إنحلالها القديم عندما ترحلان عنها».

فرد عليه مارك ثورنتون بمرارة قائلاً:

«تحدث عن نفسك، فلم تصل بعد الى درجة الانحلال!»

وفي غرفة الاستراحة الكبيرة في محطة الرصد احتشد سكان الجزيرة القلائل المدعوون للاحتفال بتوديع آدم و روبين، التي أسفت لقرب رحيلها، فغداً سيصل القارب الذي كانت تنتظره من قبل وهي على أحرّ من الجمر والآن مرّت تلك الأسابيع التي بدأت باليأس والهموم وانتهت بالسعادة.

واقترحت عليه روبين أن يعزف لسكان الجزيرة فهذا هو آخر يوم لهما في أزينا، فاستجاب لها. وفي فيللا هودريك احتشد سكان الجزيرة القلائل، وعزف آدم أمام الجمهور لأول مرة منذ ستة أشهر، واستمر يعزف عدة متنوعات لمدة ساعة، قوبل بعدها بعاصفة من التصفيق رغم أن ألحانه لم تصل الى آذان سامعيه، وأخذ الجميع ينشدون أحد الأناشيد، ورددوا النشيد نفسه عند توديعهما وهما يستقلان القارب للرحيل في اليوم التالي.

وتقابل آدم و روبين مع وفد علماء الطير الذين أتوا في القارب لقضاء بعض الوقت في الجزيرة، وقدم لهم آدم تقريره في حين راحت روبين تشرح لهم أماكن الأشياء الموجودة في البيت.

وودعهما سكان الجزيرة وداعاً مؤثراً، وقام أحدهم بوضع عقد من الزهور حول عنق روبين التي أخذت تضحك وتبكي في آن واحد، وهي تعدهم بأن تبعث اليهم برسائل وأن تزورهم إن هي مرّت يوماً بالجزيرة وبدأ القارب يتحرّك، وأخذت الأيدي الملوحة تختفي تدريجياً كما أخذت الفيللا ومحطة الأرصاد تتلاشيان شيئاً فشيئاً وبدت ملامح غير واضحة للمنزل الذي عاشا فيه، واختفت أزينا عن الأنظار في الأفق البعيد.

ووصلا الى سان فرانسيسكو بعد مضي أسبوع ولم يكن أمامهما سوى

ساعات قلائل لشراء بعض الحاجيات والقيام بجولة سريعة في المدينة لمشاهدة الجسر المشهور وميناء المدينة، قبل أن يحجزا تذكرتين للسفر مباشرة الى لندن.

وجلست روبين في مقعدها في الطائرة تحف بها السعادة والرضى... انها أخيراً عائدة الى الوطن بعدما عاشت ثلاثة أشهر في جزيرة نائية.

وسألت روبين آدم وهو يجلس الى جوارها اذا كانت أمه ستحبها، فقال لها انها ستحبها طبعاً، وأنها ستكون في انتظارهما في المطار ان كانت البرقية التي أرسلها لها قد وصلتها. وراحت تتساءل عما سيكون وقع البرقية التي أرسلتها هي الى شقيقتها جولي تبلغها فيها بقدومها. ربما يكون كارلنغ قد أنهى رحلته البحرية وأبلغ جولي بأن شقيقتها روبين فقدت.

وأخذت روبين تفكّر في حياتها الجديدة مع آدم بعد العودة الى الوطن. وهي حياة سوف تختلف عن حياتهما معاً في الجزيرة، وكيف ستستقبلها أمه وهل سترحب بزواجهما! وراحت الهواجس تتنازعها من جديد وتسائل نفسها اذا كان آدم يحبها فعلاً، وبالدرجة التي تحبه هي بها. وكلما اقترب موعد وصول الطائرة كلما اشتدت ضربات قلبها وازداد توترها.

وعندما حلقت الطائرة في أجواء لندن، وأخذت تحوم كالطائر الحائر في انتظار الاذن لها بالهبوط في المطار، تحوّل توترها الى شعور بالخوف. فماذا يحدث لو أحس آدم بالندم لاقدامه بطيش وحماقة على هذا الزواج؟

١٠ ـ حب اصيل أم بديل؟

كانت أم آدم تقف في الجانب المضاد لكل آمال روبين. كانت سيدة ممشوقة القوام، وتنم ملامحها الأرستقراطية عن عمرها الحقيقي البالغ ستين عاماً، ولكنها تنم بكل تأكيد عن الارادة وقوة الشخصية التي ورثها عنها ابنها، مثلما تكشف في الوقت نفسه عن الميول الاستبدادية.

«هذا كلام فارغ.»

قالتها أم آدم، بعد تبادل التحية، وهي تشير في رفض الى السيارة التي وصل بها هارفي سيرل مدير أعمال آدم. وأضافت تقول:

«لا يمكنك أن تأخذ روبين مباشرة الى الشقة، فلم يتمّ اعداد أي شيء هناك، كما أنها ليست في حالة تتيح لها الآن تنظيم الشقة التي ظلت مغلقة طوال ستة أشهر.»

وبرغم أن روبين كانت فعلاً مجهدة من الرحلة، ابتسمت ابتسامة مهذبة متكلفة وقالت:

«هذا عطف شديد منك يا سيدة غرانت، ولكنني أستطيع ذلك، وقد اعتدت القيام بأعمال المنزل في أريزونا وأنا واثقة أن الشقة ستصبح ضرباً من الأحلام بعد قليل من التنظيم والتنظيف.»

ونظرت الى آدم وهي تتطلع الى تأييده لها، ولكنها وجدته مقطب الجبين وقال لها:

«انك فعلاً مجهدة ياصغيرتي، وأعتقد أن أمي على حق.»

فقالت السيدة غرانت وهي تبتسم:

«نعم أنا على حق، فالصغيرة تكاد قدماها لا تقويان على حملها من شدة التعب... ولقد قمت بترتيب كل شيء، فعندما وصلتني برقيتك اتصلت بالسيد جوزيف وفق طلبك، وسوف يحضر الى هنا غداً. ولهذا فان من الأفضل بكثير أن تسير الأمور طبقاً للترتيب الموضوع.»

وتردد آدم لحظة ثم تنهد:

«وفي هذه الحالة سنضطر...»

وأضاف وهو يوجه كلامه الى هارفي سيرل وفي صوته مسحة من الغضب:

«سأراك يوم الاثنين وأناقش معك الأمور عندئذ، وأشكرك لمجيئك، وآسف لأنني كبدتك مشقة الحضور بلا طائل.»

فابتسم هارفي قائلاً:

«انا سعيد بعودتك فقط وبمقابلة عروسك الجميلة.»

وصافح روبين وهو يربت على يدها وكأنه يطمئنها بعدما لاحظ حالة القلق التي تحاول اخفاءها، ودعاها الى تناول طعام العشاء معه في الأسبوع المقبل بعد أن يستقرا.

«بكل سرور.»

قالتها روبين وهي تبدي استحسانها لهذا الرجل المهذب الذي يختلف تماماً عن الصورة التي تخيلتها لرجل الأعمال الذي يتصرف بطريقة رسمية جافة.

واستقل هارفي سيارته تاركا آدم وروبين يستقلان سيارة المرسيدس التي كانت السيدة غرانت تنتظرها بفارغ الصبر، وقادت جاني مشرفة البيت السيارة من المطار الى هامبشاير في الطريق الى بيت السيدة غرانت وقطعت المسافة في حوالي ساعة. ثم استراحت روبين عندما لاحظت عدم ميل السيدة غرانت للثرثرة ولكن مع وصولهم الى البيت أدركت أنه حان الوقت الذي يجري استجوابها فيه، وقالت لها السيدة غرانت:

هولد آدم هنا، ألم يخبرك بهذا؟»

واتجهت الى آدم قائلة:

«روبين معجبة ببيتك القديم، وأنا لا أفهم السبب الذي يحول دون اقامتك فيه مزيداً من الوقت.»

أهكذا! تنهدت روبين وهي تحاول أن تتجنب النظر الى السيدة غرانت التي أخذت تضغط شفتيها وتطلب منها دخول المنزل. انها بداية لا تبشر بخير، وابتهلت روبين الى السماء ألا تستغرق تلك الزيارة سوى فترة قصيرة جداً.

وأثناء قيام آدم بانزال الحقائب من السيارة، قالت له السيدة غرانت انها أعدت لها جناح الضيوف، ولكن اذا فضل هو الاقامة في غرفته القديمة فان جاني يمكنها أن تعدها في دقائق. فقال لها أن جناح الضيوف سيكون ملائماً ورائعاً، وعليها أن تعلم أنهما لن يمكثا هنا سوى يومين، لأن لديه أعمالاً كثيرة عليه أن يؤديها. كما أن روبين لم تر أسرتها منذ شهور.

وقالت روبين وهي تحمل الفستان الأبيض البراق الذي اشتراه لها آدم مع أشياء أخرى في سان فرانسيسكو أنها تريد الاتصال بشقيقتها جولي وتأمل أن تكون قد وصلتها البرقية.

وعندما اتصلت روبين بمنزل شقيقتها أبلغها زوجها تيرنس أن البرقية وصلت، لكن جولي غادرت البيت منذ يومين لقضاء فترة مع بعض الأصدقاء، ولن تعود الا في وقت متأخر من مساء اليوم. ووعد بأن تتصل بها جولي عندما تعود. ولاحظت روبين أن تيرنس كان يتحدث اليها بأسلوب فظ وتمنت ألا يكون قد عاد للتشاجر مع شقيقتها.

خرجت روبين من جناح الضيوف لتتجول في أرجاء البيت، فلاحظت أنه يتسم بالفخامة والأبهة من حيث الأثاث والمفروشات والستائر، وأرشدها آدم الى مكان الحمام وغرفة الملابس.

واستلقى آدم فوق أحد الأسرة، فاقتربت منه وتقدمت الى جواره، وقال لها ان أمامهما حوالي نصف ساعة للاسترخاء قبل أن يحين موعد تناول العشاء.

انها تشعر الآن بأنها لن تستطيع أن تركن للاسترخاء مرة أخرى، وطلب منها ألا تبلغ أحداً بأنه قرر العودة لاستئناف حياته الموسيقية الا عندما يطلب منها ذلك.

فسألته وهي تحرك رأسها نحوه بسرعة:

«ولا أبلغ أمك أيضاً؟»

«نعم، حتى أمي لا تبلغيها... وأعلمي أنني أحب أمي وأحترمها، ولكن هذه المسألة أريد تسويتها بنفسي.»

«ولكنها سوف تستاء عندما تعرف الحقيقة.»

«سوف تعرف قريباً جداً، وستكون أول من يعرف باستثناء هارلي الذي لايمكنني أن أكتم عنه هذا الخبر ـ وسوف يسعدها هذا كثيراً.»

وجذب نفساً من سيكارته وأضاف قوله:

«من الصعب جدا يا روبين أن يتجنب الانسان ايذاء من يحبونه، فالحب سلاح في يد المرء جاهز ذاتيا للاستخدام عندما يصبح الحب مهددا بأن يتحول الى عملية تملك تخطت حدودها وهو ما يضطرني لأن أقول لك شيئا كان يجب على أن أقوله من قبل...»

وسمعا فجأة طرقاً على الباب، وكانت جاني تبلغ السيدة غرانت، وهي تقصد بذلك روبين، بأن مكالمة تنتظرها.

وانطلق صوت جولي على الخط باضطراب وهي تقول لها انها لو كانت في البيت وقت وصول البرقية لاندفعت الى المطار لاستقبالها. وأخذت تداعبها وتناديها باسم بيني، وهو اسم التدليل الذي كانت تنادي به شقيقتها الصغرى روبين وهي طفلة، وراحت تؤنبها لأنها لم تكتب اليها وأنها لم تتلق سوى رسالة واحدة منذ ثلاثة شهور وسألتها عن شكل الرجل الذي تزوجته، وقالت لها

انها ظنت أنها لقيت مصرعها أثناء احدى الثورات التي تتفجر في أمريكا اللاتينية كل خمس دقائق على مايبدو!

ومضت جولي تقول لشقيقتها:

«أين أنت الآن؟ وكيف يمكن لي أن أراك؟ انني في غاية الشوق لرؤية زوجك، هل حقاً تزوجت عازف البيانو هذا؟ انني لا أكاد أصدق وهل قابلته على ظهر يخت كارلتغ؟»

وبدا القلق الشديد في صوتها وهي تسألها:

«ألم تتعرضي لأي أذى أو لعملية احتيال على ظهر اليخت؟»

فردت عليها روبين بقولها:

«انك تبدين كالأم التي تساورها الشكوك... بالطبع لم أتعرض لشيء من هذا، رغم أنني واجهت موقفاً حرجاً فوق هذا اليخت. وان كنت لا أستطيع أن أحكي لك التفاصيل الآن لكنني أستطيع أن أقول لك انني تمكنت من الفرار من براثن هذا الوحش كارلتغ، وقفزت من اليخت وسبحت الى شاطىء ألزينا حيث أصبحت كالشاردة، وقابلت آدم و.... انا في أي حال ستمضي يوماً أو يومين في منزل أم آدم. حان الآن موعد العشاء، وسوف أتصل بك فيما بعد للاتفاق على ترتيب ما. كيف حال زوجك تيري؟»

فردت عليها جولي بلهجة مفعمة بالتقزز والاستياء:

«انه عابس كعادته أنصحك ألا تثقي بأي رجل، ولــكن فات أوان هذه النصيحة.. تذكرت أن لك رسالاً وصل الينا منذ شهرين وهو مرسل من المحامين المختصين بقضايا أبينا، اتصلنا بهم وأبلغناهم بغيبتك فطلبوا أن تتصلي بهم عندما تعودين.»

وقلك روبين الحزن لذكرى أبيها الحبيب الى نفسها، وانتهت المكالمة وذهبت لتناول طعام العشاء، وكانت مأدبة باردة تسودها الرسميات والتوجيهات من جانب السيدة غرانت حول قواعد الأدب والسلوك، حتى ان روبين تنفست

الصعداء عندما عادت الى غرفتها من جديد.

انها تعلم الآن أن السيدة غرانت أغلقت قلبها تجاهها. وأنه ليس أمامها سوى أن تتقبل العلاقة الجديدة بسلوك مهذب وان يكن مشوباً بالقلق والتوتر. وأصبحت تتوق أكثر من ذي قبل لأن يضمها آدم بذراعيه لتشعر بالارتياح وتطمئن الى أن شيئاً لن يتغير مطلقاً، وأن السعادة التي هي فيها ليست مجرد حلم هش قد يتهشم ويندثر في المستقبل الجديد الذي بدأ فعلاً منذ قليل. ان جذور الحب التي نمت وامتدت في المنفى الغريب تبدو هشة جداً.

وداعبها آدم مداعبة خفيفة قبل أن يستغرق في النوم من شدة الاجهاد وظلت هي تنتظر أن يأتيها النعاس لينقذها من تلك الأفكار المزعجة.

وكانت الساعة الحادية عشرة قبل الظهر عندما استيقظت روبين منزعجة وهي تتعجب لأن آدم لم يوقظها. وأحست بأن هذا لن يعزز من مركزها بين أهل البيت. ولكنها لا تعبأ الآن بمركزها في البيت أو بأي شيء آخر. وأدركت أنها لاتستطيع أن تتحرك في البيت بالملابس والحرية التي كانت تملكها في ألزينا. وفكرت في ضرورة إحضار ملابسها وأشيائها من منزل شقيقتها جولي، ونهضت وأخذت حماماً بارداً. لكنها راحت تتساءل عما سترتديه هذا الصباح؟

لم تشأ أن ترتدي الفستانين اللذين اشتراهما آدم من اميريكا الا عندما يبدأن حياتهما الجديدة في بيتهما في هامستيد قرب لندن فقد حدثها آدم عنه وعن حديقته الخلفية. وفيه استوديو كبير وبيانو ومكتبة موسيقية ضخمة ومسجل موسيقي كبير يستخدمه في المقارنة بين مختلف التسجيلات، ولانتقاد القطع التي يعزفها. وراحت تقلب صندوق الملابس اللذي كان معها في إلزينا، وفيه الملابس والأمتعة التي اهداها لها آدم .ستظل تحتفظ بتلك الأشياء العزيزة الى نفسها في مكان ما حتى تريها لأحفادها عندما تتقدم بها السن وهي تروي لهم ذكرياتها الحلوة. وانتقت أحد الفساتين وارتدته، ونزلت تبحث عن آدم، لكنها لم تجد سوى جاني، ثم رأت السيدة غرانت تدخل حاملة باقة من

الزهور قامت بجمعها من الحديقة، وقالت روبين في برود عندما رأتها، انها جاءت في الموعد المناسب لتناول القهوة، ونظرت الى ساعتها وأبلغتها بأن موعد الافطار فاتها، وأنهم سيتناولون طعام الغداء بعد أقل من ساعة، فردت عليها روبين قائلة:

«لا أريد تناول أي طعام، فلست جائعة. أين آدم؟»

«ذهب الى المدينة، ألم يبلغك ليلة أمس؟ سيعود في موعد تناول الشاي.»

قالتها وهي تلحظ احساس روبين بالاحباط ورغم هذا لم تغير من طريقتها الباردة في الحديث، فردت عليها روبين قائلة:

«وقت الشاي، لماذا لم يوقظني أحد؟ كان يجب أن أذهب معه.»

وطلبت منها السيدة غرانت أن تتبعها الى غرفة الجلوس، المطلة على المروج الخضراء، لتناول القهوة التي أوشكت أن تبرد، وأبلغت روبين بأن آدم ذهب لتصريف شؤونه بسرعة وانتقاء سيارة لنفسه. وسألتها اذا كان آدم أبلغها بالحادث الذي تعرض له وحدثها عن ستيلا. فقالت روبين:

«أعرف كل شيء عن ستيلا والحادث وأعرف من الذي فسخ الخطبة.»

وسادت فترة صمت ولمعت عينا السيدة غرانت ببريق غريب وهي تقول:

«لم تكن هناك قوة في الأرض تستطيع منع وقوع هذا الحادث الذي حطم قلب ستيلا لما له من تأثير على مهنة آدم. ستيلا ابنة أعز أصدقائي وسوف يتاح لك يوماً أن تلتقي بها أنت و آدم. لاتستطيع ببساطة أن نخرجها من حياتنا لمجرد أن الزواج الذي كنا نتمناه جميعاً لم يتم. ولهذا أرجو منك أن تحاولي عندما تلتقين بها، أن تجنبيها الشعور بالألم والحرج.»

«نعم، بطبيعة الحال.»

قالتها روبين وهي مستاءة، وفي جسمها رعدة وهي تحس بأن الفتاة التي كانت مجرد اسم أصبحت شبحاً يطاردها في الحياة.

وعندما سألتها السيدة غرانت عن هدية الزواج التي تفضل أن تقدمها

اليها، احرجت روبين ثم قالت لها ان أي هدية من اختيارها ستكون مناسبة. ثم سألتها عن السبب في اقدامها على الزواج في تلك الجزيرة وعدم الانتظار حتى العودة الى الوطن، وعن رأي أبويها في هذا الزواج فقالت لها انها بلا أبوين، فأبدت السيدة غرانت أسفها وطلبت منها أن تعذرها لأنها لاتعرف عنها سوى القليل. ثم أبدت السيدة غرانت استعدادها لاقامة حفل رسمي محدود بمناسبة هذا الزواج.

وصحبها آدم صباح يوم الاثنين الى المدينة في سيارته طراز ستروين الجديدة. ولاذت بالصمت وهي في حيرة اذا كان آدم تغير خلال تلك الأيام الثلاثة منذ عودتها، أم أنها تتخيل هذا. التقى آدم مع السير جوزيف ، الذي وصل بعد قليل من عودة آدم وقد أعد جهازا للعرض وشاشة صغيرة لمشاهدة الأفلام التي سجلها آدم في ملجأ الطيور في أثرينا، وأخذا يتناقشان لبعض الوقت حول التقارير التي سجلها آدم.

ووصلت السيارة الى الفيلا التي سيقيمان فيها، فنزلا من السيارة وسبقها آدم وفتح الباب ونادى عليها كي تتفقد الشقة قبل حمل الحقائب الى الداخل. انها فسيحة وتحتل الطابق الأرضي كله بالفيلا، ومزودة بمطبخ حديث، وغرفة الطعام تطل على الحديقة. وسألته عن غرفته الموسيقية فصحبها اليها لتجدها تحتل نصف مساحة الطابق الأرضي كله، ولاتغطي أرضيتها أية أبسطة، كما تخلو جدرانها المطلية باللون الأزرق من أي نقوش أولوحات. ولاحظت وجود اثنين من أجهزة البيانو، وعندما سألته في دهشة عن السبب أجابها بأنهما يستخدمان في عزف القطع التي تؤدى على آلتي بيانو في وقت واحد ويقوم بالعزف عليهما هو وزميل له معاً.

وطلب منها أن تستدعي الأخصائي الفني الذي يقوم بضبط النغم في أجهزة البيانو وهو بولندي الجنسية ويدعى جان فانيسكي وراحت تبحث عن مفكرة أرقام الهاتف بعدما ترددت في فتح الأدراج الخاصة به ولكنه شجعها على ذلك

فليست لديه أسرار، ولكنها لم تتمكن من العثور عليها. أبلغها بأنه سيودع بعض المال لمصروفها الشخصي في المصرف، ولما قالت له انها ليس لها حساب في أي من المصارف قال أنه سيفتح لها حساباً. وأعطاها بعض النقود للانفاق فقبلتها بعد تردد. وراحت تردد لنفسها احدى الأغنيات وهي تعد العشاء الخاص الذي سيتناولانه الليلة في مناسبة أول يوم يقضيانه في مسكنها الخاص.

وعثرت أخيرا على مفكرة أرقام الهاتف، وما أن أمسكت بها حتى فوجئت بصورة تسقط منها، انها صورة سيلا الجميلة التي تشبه روبين نفسها الى حد يدعو الى الدهشة الشديدة، كما لو كانت توأما لها.

وعندما شاركها آدم الليل تلك الليلة لم تشعر، لأول مرة، بأي طعم للسعادة، بل أخذت تداهمها حتى سيطرت عليها فكرة غريبة وهي ان آدم تزوجها لأنه وجد فيها صورة من سيلا التي يحبها الحب الأصيل.

١١ - المجد والماضي

ومنذ ذلك الوقت أصبح ستيللا وجود حيّ في حياة روبين التي أخذت تذبل، واحساسها بالوحدة يزيدها مرارة. وكان آدم يبتعد عنها لفترات طويلة يومياً بعدما تحدد يوم السابع من سبتمبر/ايلول، أي بعد ثلاثة أسابيع، موعداً لعودته الى احياء الحفلات الموسيقية، وأصبحت أعصابه متوترة خلال فترة التدريب المكثف، وراح يثور في وجه كلّ من يقاطعه حتى روبين نفسها. ولم تجد روبين أمامها سوى الانصراف لشؤونها المنزلية، الى أن عثرت في أحد الأيام على معطف واق من المطر في خزانة بالبيت، وعندما استفسرت من آدم عن هذا المعطف أبلغها بأنه معطف ستيللا، التي كانت تحضر الى هذا المكان في مارس/آذار الماضي، ويبدو أنها نسيته.

وجاءت جولي ذات يوم لزيارة شقيقتها الصغرى روبين، وبعد تبادل التحية بحرارة سألتها عن آدم فأبلغتها بأنه يتمرن على العزف وجلسا سوياً لتناول الشاي، وسألتها جولي عن أمر الرسالة التي وصلتها من المحامين، فقالت انها تتعلق بالفيللا التي اشتراها والدها في جزيرة أيغينا في اليونان وأنها ما زالت ملكاً لها. فدهشت جولي لأنها كانت تعتقد أن أباها باع الفيللا بعد وفاة أمها. فقالت لها روبين انه لم يبعها وانما سجلها باسمها، أي باسم روبين، بدون أن يبلغها أو يبلغ أحداً بذلك. وأجرها لأسرة ألمانية تركتها بعد فترة وبعد ايداع قيمة الايجار في البنك باسم روبين. وأشارت جولي الى أن الأب أراد بذلك أن يؤمن لروبين مصدراً للعيش، لأنه كان يعلم أن حياة

جولي مؤمنة لأنها متزوجة، واقترحت عليها أن تحتفظ بالفيللا كمكان لقضاء العطلات والاستجمام، فوافقتها.

وحضر هارلي الى البيت قبل موعد الحفل الموسيقي بيومين، حينما كان آدم منهمكاً تماماً في الاستعداد للحفل، وقدم له عشر تذاكر وطلب آدم من روبين توزيع ثمان منها على من تعرفهم، ولكنه احتفظ بالتذكرتين الأخريين، مما جعل الهواجس والشكوك تملأ نفس روبين التي توقعت أن يهدي التذكرتين لستيللا. ولكنها طمأنت نفسها أنه ربما أراد أن يثبت لستيللا بذلك أنه صفح عنها وهو في لحظة الانتصار التي يسترد فيها مجده، ولكن كان أجدر به أن يبلغها بذلك بدلاً من ترك الأمر محاطاً بالأسرار.

وحاولت روبين أن تسرّي عنه وتقنعه بالخروج في نزهة بالسيارة حتى يستريح، أو أن يمضي وقتاً مريحاً هذه الليلة لأنه سيكون مشغولاً غداً، ولكنه استشاط غضباً وقال لها:

«يجب أن أكرس كل لحظة للاستعداد لهذا الحفل الذي يتوقف عليه مستقبلي كله، فسوف يحضره كل النقاد الموسيقيين الذين سيجلسون كالصقور».

«لن يكون الأمر هكذا، فهم يعرفون ظروف الحادث الذي تعرّضت له. أليست عندك أي ثقة بالطبيعة البشرية؟»

«أتعتقدين أنهم سيترفقون بي بسبب ظروفي أيتها الحمقاء الصغيرة؟ وهل سأقبل العطف منهم؟ ان العطف هو أكثر شيء يثيرني».

وخرج آدم من الغرفة وأدركت روبين بعد فوات الوقت أنها ما كان يجب أن تفتح هذه المناقشة، وحاول هارلي أن يهدئ من روعها في حين أخذت دموعها تنهمر وهي تقول انها لم تكن تقصد اطلاقاً المعنى الذي فهمه آدم، فطلب منها هارلي أن تتحلى بمزيد من الصبر، وأن تكون أكثر تفهماً له، فهذا هو واجب الزوجات في تعاملهن مع مثل هذا النوع من الرجال الفنانين، وطمأنها أن آدم سيعود الى طبيعته بعد انتهاء الحفل الموسيقي.... ولكن هل سيعود حقاً

الى طبيعته؟

وفي اليوم المنتظر فضلت السيدة غرانت ألاّ تحضر الى الفيللا وأن تقابل آدم في قاعة الحفل الموسيقي، وهو ما بعث في نفس روبين الشعور بالارتياح لأنها أرادت الانفراد بآدم في تلك الفترة القصيرة المتبقية قبل بدء الحفل لكي تبثه كلمات الحب والتشجيع وتمنياتها له بالنجاح...

كان آدم غاية في الجدية والصرامة وهو يغادر غرفة النوم، ووقفت روبين تنتظره خارج الغرفة وقد تملكها احساس بأن الرجل الذي أحبته في ألزينا ضاع منها... ذلك الرجل الذي كان يسبح ويمرح معها على سجيته ويداعب فرخ الطير ويعتني به ويطعمه... انه الآن قائد بشعره الأسود الذي تمّ صقله وتصفيفه، وبيديه القلقتين وعينيه السوداوين اللتين تحترقان بسطوة القوة التي يدخرها ليطلقها من عقالها في اللحظة المناسبة بعد قليل... وحتى قبلته كانت باردة، ولم تستطع أن تبدد مخاوفها وقلقها الشديد.

كانت القاعة مزدحمة بآلاف الأشخاص وتتلألأ فيها المجوهرات الثمينة، وتفوح منها روائح مختلف أنواع العطور. وكانت روبين تتخذ مقعدها بجوار السيدة غرانت التي سألتها اذا كان آدم قد بعث بتذكرة الى ستيللا، فأجابتها روبين بأنها تعتقد ذلك، وأضافت السيدة غرانت قولها:

«انك تدركين أن هذا موقف محرج لآدم، وسوف تعترفين آخر الأمر بوجود ستيللا، خاصة وأنها عادت الى الوطن من جديد و...»

ولاذت السيدة غرانت بالصمت عندما نبهها أحدهم الى أن الحفل على وشك أن يبدأ. وفي تلك اللحظة بدأت روبين تشعر بالكراهية نحو أم آدم، فما الذي دفعها الى ذكر اسم ستيللا في هذه المناسبة الخاصة؟ أليست ستيللا هي السبب فيما أصاب آدم؟ وما الذي كان يحدث لو لم تحصل ستيللا على تذكرة؟ لم تكن ستيللا هي التي أعادت آدم الى حياته الموسيقية ومجده، ولكنها هي التي أعادته. وعندما ظهر آدم على المسرح قوبل بعاصفة من

التصفيق والترحيب، فرد على تحية الحاضرين، ثم بدأ يعزف ألحاناً لشوبان وشومان وأخذ يتطرق الى القطع الموسيقية الصعبة فيؤديها بكفاءة واقتدار العازفين العظام المتمكنين من فنهم.

ولم تتمالك روبين نفسها فانفجرت بالدموع وراحت تشق طريقها بصعوبة الى خلف كواليس المسرح لكي ترى آدم، وفي اللحظة التي وصلت اليه فيها ظهرت السيدة غرانت وبصحبتها سير جوزيف وفتاة ترتدي زياً متألقاً زاهياً، واندفعت تلك الفتاة نحو آدم لتدفن رأسها في صدره فضمها اليه وصحبها الى غرفته. وانهارت روبين وراحت تهذي وهي ترى ستيلا قد عادت، و آدم ما زال يحبها. ولم يعد أمامها الآن سوى أن تهرب من الناس والأنظار معاً وتبحث لها عن مكان آخر حيث... وأصيبت بالاغماء ولم يعد بمقدورها حضور حفل الاستقبال الرائع الذي أقيم تكريماً لآدم بعد انتهائه من احياء الحفل الموسيقي. وصحبتها السيدة غرانت في برود وفتور الى سيارة المرسيدس التي انطلقت بهما، ورافقتهما جاني، في طريق العودة الى منزل السيدة غرانت، ورغم أن الشوارع كانت ساطعة بأنوارها فان روبين تخيلتها مظلمة، وراحت تهذي، مما جعل السيدة غرانت تطلب من جاني استدعاء الطبيب فور وصولهم، ولكن روبين أصرت على عدم استدعاء أي طبيب وقالت انها ستصبح على ما يرام، وأن ما حدث كان بسبب عدم تناولها أي طعام طوال اليوم، وبسبب الحر الشديد داخل القاعة.

وقدمت لها جاني كوباً من اللبن وبعض البسكويت وقرصاً مهدئاً ليساعدها على النوم، وظلت قلقة تتوقع حضوره ليبدد ما بها من هواجس، ولكنه لم يحضر، ومع أول خيط للنهار نهضت من سريرها تبحث عنه وهي تتصور أنه حضر أثناء نومها ولم يشأ ازعاجها، ولكنها تيقنت أنه لم يحضر، فانهارت باكية، وأدركت أنه لم يعبأ بها رغم أنها ستضع له طفلاً!

وقامت جاني بتهدئتها، وأعدت لها فنجاناً من الشاي، وقدمت لها صحف

الصباح، وكلها تتحدث في اعجاب عن حفل الأمس، وتقول في عناوينها الرئيسية ان أداء آدم بالأمس كان أروع من ذي قبل، وهو ما جعل روبين تشعر بالفخر، وأبلغتها جاني بأن آدم اتصل هاتفياً وسوف يحضر في وقت متأخر اليوم. كما عرفتها بأن العروض بدأت ترد لآدم من الخارج لكي يقوم بجولة في الولايات المتحدة، ويعزف في مهرجان شوبان في وارسو في أكتوبر/تشرين اول المقبل.

ونهضت لتغسل وجهها وهي تتذكر ما قاله لها آدم عندما عرض عليها الزواج:

«انك في حاجة الى شخص يرعاك... الى أن نعود الى انكلترا، وبعد ذلك... سنبحث هذا الأمر عندما يحين وقته.»

وتملكتها حالة من القنوط الشديد وهي تقول لنفسها: «لقد حانت تلك اللحظة». وخرجت الى القاعة تتصل بشقيقتها جولي وتبثها أحزانها ففوجئت بالمعطف الواقي من المطر الذي وجدته من قبل في الفيللا ملقى باهمال فوق أحد المقاعد وسمعت السيدة غرانت تتحدث مع شخص آخر في غرفة الجلوس وتقول:

«لماذا فعلت ذلك يا عزيزتي؟ أعلم أنه غير سعيد وأنا واثقة لو أنك كنت... لما كان قد تزوج بها، أتعرفين من هي؟ انها ابنة روبرت واين رجل المال الذي تخلص من حياته. لم أعرف كل تفاصيل هذا الزواج ولكنني فهمت أنه أنقذها من ورطة وقعت فيها مع جيرالد كارلتغ، وهو رجل كريه جداً، وكلما رأيتها أو سمعت حديثاً عنها كلما ازددت اقتناعاً بأنها ليست سوى مغامرة صغيرة رخيصة.»

وتراجعت روبين في ذعر بعدما أدركت مدى ما تنطوي عليه نفس أم آدم من شرٍ لم تكن تظن أنها تخفيه وراء مظهرها البارد المتعجرف، ولم تنتظر لتسمع المزيد من حديثها وأسرعت عائدة الى غرفتها، وجمعت أشياءها القليلة وانطلقت خارج البيت، تستقل سيارة أوتوبيس اتجهت بها الى منزل جولي، التي حاولت

تهدئتها وقالت لها انها ستحاول الاتصال بآدم ليحضر ويأخذها وتنتهي الأزمة، ولكن روبين أبلغتها بأن الوقت قد فات، لأنها تركت له رسالة تبلغه فيها بأنها ابتعدت عنه بعض الوقت لتتدبر الأمر وأن عليه ألا يقلق.

فقالت لها جولي:

«الكلمات التي سمعتها من أم آدم لم يقلها لك آدم نفسه، وأنت لم تتزوجي أمه التي تنتمي الى القرن الماضي. انك حامل وهذا يجعلك حساسة وعاطفية جداً.»

«نعم، ولهذا فانني يجب أن أبتعد عن آدم لئلا أسبب له قلقاً، وحتى يتفرغ للبيانو وللجولات في الخارج واحياء الحفلات الموسيقية، انه ليس في حاجة اليّ أو لأي شخص آخر الآن، وآخر شيء يريده هو طفل يبكي و... و...»

وقاومت دموعها التي كادت تنهمر وأضافت وهي في غمرة الانفعال:

«لا يمكنني البقاء في مكان أكون فيه غير مرغوبة أو غير محبوبة!»

واتصلت جولي هاتفياً بالمطار لتستفسر عما اذا كانت رحلة الطائرة المتجهة الى أثينا ليلاً قد ألغيت، وبعد ذلك اتجهت جولي وزوجها تيري وروبين الى المطار حيث استقلوا جميعاً الطائرة الى أثينا ـ ولاذت روبين بالصمت. أهو حلم مفزع هذا الذي يحدث؟ أهي حقاً متجهة الى اليونان تاركة ادم وراءها في لندن؟ أخفت عن آدم أنها حامل، وقررت الاحتفاظ بالسر الى ما بعد الانتهاء من اقامة الحفل الموسيقي، فعندئذ تكون تأكدت فعلاً من حملها... ولكن هل هذا هو السبب الحقيقي وراء اخفائها لهذا السر؟ أم أن السبب هو خوفها دون مبرر من أن يستاء آدم ويحس بأن الطفل عبء، لم يكن يريده؟ وكانت سيللا قد عادت في ذلك الوقت...

ولم تنم روبين الا قليلاً في الفندق الصغير في أثينا قبل انتقالهم الى الفيللا التي تملكها روبين الآن في جزيرة أيفينا ، وأثناء الرحلة الى الجزيرة أخذت روبين و جولي تتبادلان الحديث عن ذكرياتهما الحلوة في تلك

الجزيرة.

وفي اليوم الخامس، وبعد تناول طعام العشاء، خرجوا للتنزه في حديقة الفيللا، ودار حوار عنيف بين روبين و جولي التي كانت تحاول جعل روبين تتراجع عن اصرارها على البقاء في الجزيرة. فلا يمكنها أن تتركها هنا وحدها وقالت لها:

«لا بد أن يحاول أحد الناس ارجاعك الى الصواب!»

وسمعتا صوتاً يقول في برود:

«وأنا أوافق على هذا تماماً.»

ووسط ذهولهما تلفتتا حولهما فاذا بآدم واقف أمامهما!

١٢ - شهقة الحقيقة

وتقدم آدم ليجلس الى جوار روبين ويقول لها بعينين تفيضان بالحزن:

«جعلتني أقوم بمطاردة لطيفة.»

«وكيف جئت الى هنا؟»

«كما جئت انت، في الطائرة ثم في المركب.»

وحكى لها كيف علم من جاني بما حدث، ومدى المتاعب الشديدة التي واجهته لمعرفة المكان الذي اتجهت اليه، وعندما لاحظ أنها ترد عليه بجفاف واقتضاب سألها:

«روبين... هل انتهى حبك لي؟»

«وهل هذا يهم؟»

«وهل نسيت أنك زوجتي... حسناً... قبل أن أنصرف أريدك أن تقولي لي انك لا تريدينني ولن أزعجك بعد ذلك، ولكنني أريد أن أسمعك تقولين هذا قبل أن أخرج من حياتك مثلما خرجت أنت، على مايبدو، من حياتي.»

وأخذ قلبها يخفق بشدة وهي ترتجف وقالت هامسة:

«كلا... كلا... لا أستطيع... أوه... آدم!»

«أوه... حبيبتي.»

وأخذها بين ذراعيه بضراوة، ففاضت عبراتها وتدفقت عواطفها وهي تهمس له بأحاسيس الشوق واللوعة.

وراحت تسأله اذا كان يحبها، فأكد لها مدى حبه الشديد لها، وأنه اعتقد أنها

تدرك هذا منذ التحمت قلبه ذات مساء، وعلّمته مدى ما يحققه الايمان والحب من معجزات، وأنه بدون وجودها وكل هذا الحب والايمان والتفاهم لما أمكنه أن يعرف من جديد.

وسألته قائلة:

«قل لي بصراحة: هل أنا بديل باهت لستيلا؟»

فنظر اليها صامتاً لحظات ثم ابتسم وقال:

«كنت أعتقد أنني أحب ستيلا، فقد عرفنا بعضنا، وكانت الصداقة تجمع بين عائلتينا... ولكن من الغريب أنني بدأت أحبها عندما وصلتني رسالتها، وكانت تلك الحالة من المرارة التي وجدتني عليها في أثرينا.»

«قرأت رسالتها.»

«كان يجب أن تبلغيني بذلك، ان لم يكن في ذلك الحين ففيما بعد.»

«اعتقدت أنك مازلت تحبها حباً شديداً، وقد رأيتك تعانقها بعد انتهاء الحفل الموسيقي.»

«لحظة من فضلك، رأيتني عندما كانت هي تعانقني، وهناك فرق.»

«لا فرق عندي.»

«كلا، أرجو أن تكوني عادلة، كان الموقف مشحوناً بالعواطف، فقد حققت عودة ناجحة لحياتي الموسيقية، ورفعت عن كاهلها الاحساس بالذنب الذي كانت تعاني منه، وقد عثرت لنفسها أيضا على خطيب جديد.»

واحتضنها مرة أخرى ثم سألها قائلاً:

«هل صحيح أنك أصبت باغماء ليلة الحفل لأنك...»

«نعم، ولكنني لم أشأ ابلاغك الا بعد زيارة الطبيب الذي أكد لي ذلك.»

فاعتذر لها لأنه كان فظاً، وأنه أهملها خلال الأسابيع التي سبقت الحفل ولكنه قال لها انه سيعوضها عن هذا كله. وطلب منها أن تصفح عن أمه بسبب ماتفوهت به من كلام عنها، وقال لها انه لم يكن يعلم أن أمه يمثل هذه القسوة

والقلب المتحجر. فقالت له انه لا أهمية لذلك الآن، فكل الأمهات يعتقدن أن لديهن معرفة أفضل بالأمور التي تتعلق بأبنائهن وبناتهن.

وأبلغته بأن الوساوس ملأت رأسها عندما اتصلت به في الفيلا الصباح التالي للحفل ولم تجده، واعتقدت أنه لم يعد يحيا بها، وظنت أن زواجها الذي تم في أثرينا لم يكن زواجاً صحيحاً. فقال لها انه زواج صحيح ولكنه مستعد برغم ذلك لأن يعقد زواجه من جديد في لندن ان كان هذا ما يقلقها. أما بالنسبة الى تلك الليلة فقد قضاها في منزل هاري الذي دعاه للمبيت عنده لأنه لم يكن يستطيع النوم في الفيلا اذ لم يتحمل أن يراها خالية منها، ومضى يقول:

«وعندما اتصلت ببيت أمي أبلغتني بأنها تعتني بك وأنه لا داعي لازعاجك وايقاظك، كما أنه لا داعي لمجيئي اليك، ولقد كنت غبياً عندما صدقتها».

وأطرقت قليلاً ثم قالت له:

«ألم، ألن يضايقك انجابي طفلاً؟»

«بالطبع... وكيف يضايقني هذا أروع شيء في حياتنا. هنا اليهمي»

وكان لقلقه عليها واهتمامه الشديد بها، يتجلى في كل نبرة من نبرات صوته وكل حركة من حركاته، مما أعاد اليها الاحساس بالاطمئنان الذي كانت تتوق اليه، وبدأت تضحك وهي تقول له:

«السماء لم تمطر نقطة ماء واحدة منذ مجيئنا».

قال لها في حزم:

«لن ندع الأمور تسير كيفما اتفق بعد الآن، من الآن فصاعداً لن أدعك تبتعدين عن عيني لحظة واحدة».

ورفعها في رقة بالغة كما لو كان يرفع شيئاً ثميناً قابلاً للكسر، وسألته هامسة وهما في طريقهما الى الفيلا:

«هذا شيء لطيف طبعاً، ولكن قل لي كيف ستبقيني أمام ناظريك كل لحظة، وتقوم بجولاتك في أنحاء العالم في الوقت نفسه؟»

ستأخذك معي طبعاً، وعندما تضعين طفلنا، سأرتب الأمور فأخصص فترات راحة من رحلات العمل التي تستغرق مني وقتاً طويلاً، ونأتي الى ابقينا حيث نمضي أحلى أيام شهر عسل في حياتنا».

وتوقف وهما على وشك دخول الفيلا، ونظر الى وجهها المشرق بعينين يشع منهما الحنان والحب وقال لها:

«لا بد أن تكون عندكم هنا غرفة احتياطية للأزواج الرحل الذين ضلوا طريقهم؟ فأنا لا أميل لقضاء الليلة في فندق».

فاقتربت منه لتقبله في مودة وهي تقول له:

«أنت سعيد الحظ أيها الحبيب الرحالة الذي ضلّ الطريق، هنا غرفة احتياطية، ان كنت راغباً حقاً في قضاء الليلة هنا».

ولكن الغرفة الاحتياطية كانت مكدسة بمتاع البيت، وبالسلالم المتحركة وصابون الغسيل... مسكينة جول... اضطرت الى قضاء الليل كيفما اتفق وهي تحاول أن تتظاهر، بدون جدوى، بأنها مستغرقة في نوم عميق!